ملخص البحث :

"اليوسفى ت٧٥٩هـ/١٣٥٧ ومنهجه في كتاب نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر"

يتطرق البحث لمنهجية المؤرخ اليوسفى في كتاب نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر متضمنا التعريف باليوسفى وحياته العملية والعلمية ومكانته الأدبية مع التطرق لملامح عصر اليوسفى، ثم محتوى كتاب النزهة من مختلف الجوانب السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها من المعلومات التى تصدى لها اليوسفى في كتابه والتي اتضح منها حرصه الشديد على تغطية الفترة التاريخية من مختلف الجوانب وإعطاء صورة حية لما كان عليه الحال آنذاك. وكذلك التعرف على المنهج الذى اتبعه اليوسفي في صياغة الكتاب وقد اتضح مدى المكانة العلمية لكتاب النزهة خاصة وأنه لم يكن فقط شاهد على العصر بل كان مشاركا في الاحداث مع حرصه الشديد على البحث وتقصى الأخبار.

الكلمات المفتاحية: اليوسفي ، النزهة ، شاهد، العلمية ، المنهجية التاريخية ، سير .

Abstract:

The Research Deals With The Methodology Of The Historian Al, Yusuf In The Book Nazha Al, Nazir In The Biography Of King Nasser ،The Research Includes Introducing Al, Yousifi, His Scientific And Practical Life, And His Literary Status ،With Reference To The Features Of The Era Of The Historian, Then The Content Of The Nuzha Book From Several Political, Administrative, Economic, Social And Other Aspects From Information Addressed By The Historian In His Book ،Which Showed His Keenness To Cover The Historical Period From Various Aspects And Give A Live Image Of What Was The Situation During That Period As Well As Getting Acquainted With The Method Put Forward By Al, Yousfi In The Formulation Of The Book, It Was Clear How Scientific Status Of The Book Of Nozha Was, Especially Since The Author Was Not Only A Witness To The Era But Was A Participant In The Events, With His Keen Interest In Research And Investigation Of The News.

Keywords: Al Yousfi, Nazha, Witness, Scientific, Historian Methodology, Biography.

"اليوسفي (ت٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م)
ومنهجه في كتاب "نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر"

- اليوسفي حياته.
- وظائفه.
- مكانته الأدبية.
- مؤلفاته.
- القيمة العلمية لكتاب نزهة الناظر.
- ما ينفرد به اليوسفي.
- ملامح عصر اليوسفي.
- المضمون والمحتوى لكتاب نزهة الناظر.
- الفكر التاريخي في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.
- منهج اليوسفي في كتاب نزهة الناظر.

اليوسفي (ت ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨)

ومنهجه في كتاب "نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر"

تميز العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) بثرائه العلمي والأدبي الواسع، خاصة في مجال التدوين التاريخي، والذي اعتبر أنه وصل إلى أعلى مراحله آنذاك، حتى غدت تلك الفترة هي مرحلة الخصب للتدوين التاريخي[١] ولكن على الرغم من كثرة عدد مؤرخي ذلك العصر وتنوع كتاباتهم؛ فإنه لم ينل الكثير من هؤلاء وأعمالهم الاهتمام الأمثل الذي يتناسب وما تركوا من تراث تاريخي ضخم، ولعل ذلك يرجع إلى ضياع قدر لا بأس به من نتاج تلك الفترة، وبالرغم من كثرة ما وصل إلينا منها؛ إلا أن بعضًا من هذه المصادر فقط هو ما يتميز بالأصالة والتفرد، ومن بين تلك المصادر المهمة: كتاب اليوسفي: "نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر"[٢].

اليوسفي حياته:

هو عماد الدين موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المصري المعروف بابن الشيخ يحيى[٣]، أما عن مولده فقد ذكره ابن حجر في سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م[٤]، بينما لم يحدده الصفدي في النسخة التي تم التوصل إليها.

هذا في حين يرجح محقق كتاب "نزهة الناظر" أنها كانت سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧[٥] اعتمادًا على إحدى نسخ كتاب الصفدي أعيان العصر[٦]، ويؤيد المحقق ما ذهب إليه بقوله بأن اليوسفي كان

---

(١) للمزيد انظر: شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، ج٣، ص١٧: ١٩، ٨٥: ٨٦.

(٢) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص٣٥.

(٣) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبوزيد وآخرون، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٨، ج٥، ص٤٨٧، ترجمة رقم (١٩٠٢)، ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، بيروت، ١٩٩٣، ج٤، ص٣٨١، ترجمة رقم (١٠٣٧)، حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مج٢، عمود ١٩٤٧: ١٩٤٨، الزركلي: الأعلام، بيروت، ط٥، ٢٠٠٢، ج٧، ص٣٢٨.

(٤) الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨١.

(٥) اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، ط١، ١٩٨٦، ص٤٢ من مقدمة التحقيق. واعتمد محقق في تحديد هذا التاريخ على ما جاء في كتاب أعيان العصر للصفدي نسختي أحمد الثالث ورئيس الكتَّاب، بينما ذكر ابن حجر في كتابه الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨١ أن ميلاده كان سنة ٦٩٦هـ، وذلك اعتمادًا على ما جاء في كتاب أعيان العصر نسخة أيًا صوفيا، ويرجح المحقق ما ذكره اعتمادًا على أن اليوسفي – على حد قوله– شارك في معركة وادي الخزندار سنة ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م وعليه فلا يُعقل أن يكون مولده سنة ٦٩٦هـ. انظر اليوسفي في نزهة الناظر، ص٤٢، حاشية ٧ مقدمة التحقيق.

(٦) هذا رغم تأكيده هو نفسه بأنه وجدها في إحدى نسخ الصفدي سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م وأنه وجدها كذلك عند ابن حجر، مقدمة التحقيق ص٤٢، حاشية (٧).

ضمن جند الجيش المملوكي، أثناء معركة وادي الخزندار سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٦م[١] وعليه – على حد قوله– فإنه يرجح كونها سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م. وبالرجوع إلى المصادر التي عرضت لهذه الواقعة – سواء معاصرة أو غيرها– لم أجد ما يشير من قريب أو بعيد إلى اشتراك اليوسفي فيها[٢]، وبما أنه من غير المتاح التوصل إلى مصدر يؤكد ما ذهب إليه المحقق؛ فمن المرجح أنها كانت سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م كما جاء عند ابن حجر[٣]، وهو ما اعتمده الكُتَّاب المحدثين[٤].

حياته وشخصيته:

لم تفصح المصادر عن معلومات تخص نشأته أو تعليمه أو سماته الشخصية، ومن خلال دراسة ما جاء في الجزء المتوفر بين أيدينا يظهر أنه كان شخصية اجتماعية على صلات طيبة بالكثير من معاصريه، وأنه كان محل ثقة واحترام وتقدير منهم[٥]، ويتضح ذلك من خلال صدقاته القوية آنذاك، وقد أكد الصفدي المؤرخ على ذلك، فقد كان أحد أصدقائه[٦] فضلاً عن قدرة اليوسفي على

---

(١) وادي الخزندار أو مجمع المروج وقعت بين التتار بقيادة غازان بين أرغون والمماليك بقيادة الناصر محمد بن قلاوون، وذلك يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ربيع الأول وكانت الدائرة على المماليك الذين فروا وسيطر التتار على الشام وجبوا الأموال، وقطعت الخطبة للناصر هناك لمدة مائة يوم، للمزيد عنها وما ترتب عليها، انظر أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ط١، القاهرة، د. ت، ص٤٢: ٤٤، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فواز: حكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج٣١، ص٢٤٠: ٢٥٣.

(٢) للمزيد انظر أبوالفدا: المختصر، ج٤، ص٤٢: ٤٤، النويري: نهاية الأرب، ج ٣١ ص٢٤٠: ٢٥٣، ابن أيبك الدواداري: كنز الدُرر وجامع الغرر، ج٩، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني، القاهرة، ١٩٦٠، ص١٥: ٣١، ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، ج١، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص٤٦١: ٤٦٤، البرزالي: المقتفى على كتاب الروضتين المعروف بـ "تاريخ البرزالي" تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ٢٠٠٦، مج٢، ص٢٣: ٢٤، ٢٧، ٢٨: ٣٢، ٤٢، ٤٦. الذهبي: دول الإسلام، بيروت، ١٩٨٥، ص٣٩٤: ٣٩٦. الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٨٠: ٨٤. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ج٢، ص٣١٧: ٣٣٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ج٨، ص٩٥: ١٠٤، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥، مج١، ق٢، ص٣٢: ٣٣.

(٣) الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨١.

(٤) انظر الزركلي: الأعلام، ج٧، ص٣٢٨، طه خليل الحمادي: دراسة وتحقيق قطعة من مخطوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، ٢٠١٤، ص٨٠.

(٥) للمزيد انظر الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٨، ابن حجر: الدرر، ج٤، ص٣٨١,

(٦) عنها انظر أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٧: ٤٨٩، للمزيد عن صداقات اليوسفي انظر. اليوسفي: نزهة الناظر، ص٤٥: ٥١ من المقدمة، ص١٦٤: ١٦٥، ١٨٣، ١٨٩، ١٩٢: ١٩٣، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٤، ٢٣٢: ٢٣٣، ٢٧٢: ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٨٧: ٢٨٨، ٣٠٥: ٣٠٧، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٣٤، ٤٠٧: ٤٠٨.

التودد والتواصل مع الآخرين[١]، حتى أن أحدهم رغم معرفته القصيرة به يطلب منه أن يكتب رسالة للحاكم ببلده[٢] لثقته فيه، ولا غرو أن أخلاقه وسماته الفاضلة كانتا المعين له على ذلك الأمر الذي جعله محل ثقة لكل من تعامل معه، حتى سمح له صديقه الشيخ اليعمري ابن سيد الناس[٣] أن يطلع على مراسلاته ومكاتباته الخاصة التي كان يرسلها أو ترسل إليه من أهله وأقاربه ببلاد المغرب[٤]. وتلك الثقة هي أيضًا ما دفعت بأحد الأمراء إلى الإسرار إليه ببعض الأمور الخاصة[٥]، بل واستشارته في قرارات مهمة والأخذ برأيه فيها[٦].

وكان اليوسفي حريصًا على الاعتراف بالفضل لأهله، مصرحًا بأسماء من ساندوه أو كانوا سببًا فيما وصل إليه من الخير، من ذلك ما ذكره عن الأمير أيتمش[٧] وفضله عليه حيث قال: "كان من المحسنين إليّ وسبب تكبيري بين الناس، وقدمني للسلطان دفعتين حتى نلت منه كل خير" وزاد على ذلك بالتصريح بأن أيتمش كان قد أوصى له بشيء من ثروته بعد وفاته[٨].

---

(١) انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٤٠٧: ٤٠٨.

(٢) من ذلك ما حدث عند خروجه ضمن العسكر المصري المتجه إلى اليمن سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م حيث أعجب به مؤدب الملك المجاهد (حاكم اليمن آنذاك) وطلب منه أن يكتب رسالة إلى الملك المجاهد يطمئنه فيها، ورغم محاولات اليوسفي للاعتذار إلا أن مؤدب الحاكم لم يقبل عذره وألزمه بالكتابة عنه :انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ملاحق الكتاب، ص٤٢٣: ٤٣٢.

(٣) ابن سيد الناس: الإمام الحافظ فتح الدين أبوالفتح محمد بن الإمام الحافظ الخطيب أبوبكر محمد بن سيد الناس اليعمري الأندلسي ثم المصري، أحد علماء الحديث، له عدة مصنفات توفي في الحادي عشر من شعبان سنة ٧٣٤هـ/ ١٢٣٣م بالقاهرة. للمزيد انظر ابن الجزري: تاريخه، ج٢، ص٧٢٠: ٧٢٩ ترجمة رقم (٩٠٦)، اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢١٦: ٢٢٩. الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٢٠١: ٢٤٤، ترجمة رقم (١٧٧٢)، ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: عبدالله بن المحسن التركي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ج١٨، ص٣٧٢: ٣٧٣.

(٤) للمزيد انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢١٩، ٢٢١.

(٥) للمزيد انظر علاقته بالأمير جمال الدين يوسف أمير طبر (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، وكذلك علاقته بالأمير صلاح الدين طراخان (ت٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م)، اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢١٣: ٢١٤، ٢٧٢: ٢٧٥.

(٦) انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٨٧: ٢٨٨.

(٧) أيتمش: الأمير الكبير سيف الدين أيتمش بن عبدالله المحمدي نائب السلطنة بصفد وهو من المماليك المنصورية، له معرفة جيدة بلسان المغول لذا كان له دور كبير في السفارات التي تمت بين الناصر ومغول فارس، حتى أنه كسب ودهم وثقتهم؛ جرده السلطان على رأس الجيش أكثر من مرة، توفي سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م. بصفد. للمزيد انظر ابن الجزري: تاريخه، ج٢، ص٩١٩، ترجمة رقم (١١٧٦)، اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٢٩: ٣٣٢.

(٨) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٢٩: ٣٣٠.

ومنه أيضًا ما ذكره عن القاضي كريم الدين الكبير[١] وإحسانه إليه، وهو الأمر الذي دفع اليوسفي إلى إظهار الوفاء له حتى بعد عزل كريم الدين ومصادرته، وخوف الناس من زيارته أو الاجتماع به لكن اليوسفي لم يعبأ بذلك فذهب بكل شجاعة لرؤيته حرصًا منه على رد جميل كريم الدين عليه، إذ كان يترصد الاجتماع به لما سبق من إحسانه إليه، وقد أثار ذلك تعجب كريم الدين فسأله: "كيف جسرت على زيارتنا في هذا الوقت الصعب"[٢].

وهذا يدل على وفائه وشدة إخلاصه لأصدقائه، ولا يخفى أهمية تكوين مثل تلك الصداقات للمؤرخ وبحثه[٣]. وقد وصفه الصفدي بأنه كان "مشهورًا بالمروءة ومعروفًا بالعصبية التي هي بين حنايا جوانحه مخبوءة، يصحب الأكابر ويغالطهم بالمودة ويكابر، ويلازم صحبة الأعيان ويثابر، لم تفته صحبة رب سيف ولا رافع علم، يتقرب إليهم بالخدم ويسعى على رأسه في قضاياهم لا على القدم"[٤].

أما عن عمله فقد أجمعت المصادر على أن اليوسفي كان أحد مقدمي الحلقة[٥] بالديار المصرية[٦]. مما جعله من المقربين للحكم[٧]، ولا غرو أنه استفاد من ذلك كثيرًا في كتاباته، وإن

---

(١) كريم الدين عبدالكريم أكرم بن إسحاق بن العلم هبة الله بن السديد القبطي المصري أسلم وتسمى كريم الدين، ناظر الخاص ومدبر دولة الناصر محمد وفاقت مكانته الوزراء والكتاب وهو صاحب الفضل في إتمام الصلح بين الناصر ومغول فارس وانتهى به الأمر إلى العزل والمصادرة بسعاية الأمراء فيه ثم نُفي إلى أسوان، وشنق فيها بعمامته في منزله، وإتهم الناصر في ذلك، وكانت وفاته سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م. عنه انظر الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص٣١٤: ٣١٥. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د. ت، ج٢، ص٣٧٧: ٣٨٢، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٢٣٩، ٢٥١. المقريزي: السلوك، ج٣، ص٩٣: ٩٤. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ج١، ص٤٥٣: ٤٥٤، كريمة حسين العسقلاني: تحقيق مخطوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر الدين العيني في الفترة من (٧٢٣: ٧٤١هـ/ ١٣٢٣: ١٣٤٠م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات الإنسانية، قسم التاريخ، ٢٠١٦، ص٢١٨: ٢٤١.

(٢) كريمة عسقلاني: تحقيق مخطوط عقد الجمان، ص١١٨.

(٣) عنها انظر عبدالعليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، العراق، ١٩٩٥، ص١٧٥.

(٤) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٧: ٤٨٨.

(٥) مقدم الحلقة هو أحد جند الحلقة يُقدم على مجموعة منهم، وأجناد الحلقة جعلهم القلقشندي في الطبقة الثانية من طبقات الأمراء، وهم عدد جم وخلق كثير، لكل أربعين مقدم منهم، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر، كانت مواقفهم له وترتيبهم إليه. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤، ج٤، ص١٦، محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص١٢، رقم (٨)، ص٦٣، رقم (٣٣٦).

(٦) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٧، ابن حجر: الدرر، ج٤، ص٣٨١.

(٧) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣، ص٢١٧.

كانت المصادر لم تفصح صراحة عن تاريخ انضمامه للجندية أو وصوله للتقدمة؛ لكن على أية حال فإن عمله هذا قد أتاح له المشاركة في العديد من الحملات العسكرية آنذاك، منها الحملة المتجهة إلى سيس[١] في سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م[٢] وكذلك مشاركته في الحملة التي تم تجريدها إلى اليمن سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م[٣].

وقد أكد اليوسفي أنه لم يكن مصاحبًا لحملة اليمن كأحد رجالها المحاربين، بل باحثًا عن الأخبار، مستقصيًا لآثار حكامها، وقد ساعدته شخصيته الاجتماعية المؤثرة أن يكسب ود بعض رجال الدولة هناك؛ وعليه استطاع الحصول على ما يريد من معلومات تخدم كتاباته وتوثقها، وبالفعل قدم عرضًا عن رحلة العسكر المصري إلى اليمن، وما دار بها من أحداث ومحادثات، فضلاً عن حفظه لنصوص الكتابات الرسمية التي تتصل بالحملة؛ وعليه يمكن القول بأنه عسكري ولكن بنظرة المؤرخ.

على أن أهم الحملات العسكرية التي شارك فيها اليوسفي هي الحملة المتجهة إلى سيس في سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)، وقد اهتم بسرد أحداثها بالتفصيل في كتابه[٤]،ويزيد من قيمتها أنه حرص – وبعين المؤرخ المدقق– على تقديم وصف للكثير من المعالم هناك.

مكانته الأدبية:

إذا كانت المصادر لم تفصح عن شيء فيما يخص حياة اليوسفي الشخصية أو تعليمه[٥]؛ إلا أنها أجمعت على أن الله تعالى منح اليوسفي موهبة أدبية ونظرة فاحصة جعلته يعد ضمن مؤرخي الدولة المملوكية البارزين، بل وناظمي الشعر، حتى قال عنه الصفدي: "كان يعاني شيئًا من النظم والنثر على عاميته، ويأتي به طباعًا من غير تكلف سجيته فيأتي من ذلك بما يضحك الثكالى،

(١) سيس: بكسر السين المهملة وسكون الياء، كانت أعظم الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس، وهي قاعدة بلاد الأرمن آنذاك وذلك بعد استيلائهم عليها، وهي بلدة ذات بساتين وأشجار ولها قلعة حصينة، تم استعادتها للدولة الإسلامية في عهد الأشرف شعبان. للمزيد انظر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د. ت، مج٣، ص٢٩٧: ٢٩٨، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٣٠، ١٣٤: ١٣٥.

(٢) نزهة الناظر: ص٤٠٥، وللمزيد عنها انظر أبوالفدا: المختصر، ج٤، ص٩١، الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص٣٠٩، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٢١٦: ٢١٧.

(٣) ونقل العيني نص هذه الحملة من اليوسفي نفسه، وأثبتها محقق النزهة (موضوع الدراسة) في ملاحقة تحت عنوان "شذرات من مخطوط النزهة كما أثبتها العيني". عنها انظر نزهة الناظر، ص٤٢٣: ٤٣٢. وللمزيد عن هذه الحملة، انظر أبوالفدا: المختصر، ج٤، ص، الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص٣١٨، ابن كثير: البداية، ج١٨، ص٢٥٤: ٢٥٨. المقريزي: السلوك، ج٣، ص٨٢: ٨٥.

(٤) نزهة الناظر، ص٣٩٤: ٤١٩، المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢١٨: ٢١٩، ٢٢٩: ٢٣١.

(٥) تجدر الإشارة إلى أنه لم يتعرض لترجمة اليوسفي سوى مصدرين فقط وهما الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٧: ٤٩٠، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨١: ٣٨٣.

وينشط القلوب للتعجب بعد أن كانت كُسالى[١]". وذلك رغم عدم اشتغاله باللغة العربية؛ الأمر الذي كان يدعو لتعجب المتعاملين معه أو المقربين منه، وعلى رأسهم الصفدي والشيخ ابن سيد الناس فيقولان له: "يا سيدنا سبحان من وسع عليك في هذا الفن المسالك فيعجبه ذلك، ويقول: هذا والله ولم أقرأ المقامات ولا حفظت شيئًا من شعر المتنبي ولا اشتغلت بشيء من العربية ولا العلم، فنقول له هذه مواهب وقرائح"[٢] ولاشك أن مخاطبته بـ "سيدنا" من قبل هؤلاء تدل على المكانة التي تمتع بها آنذاك.

ويكفي دليلاً على مكانته الأدبية ما أنشده الصفدي في حقه ومنه:

دار عماد الدين شوقي لها * يجل أن يذكر بين العباد**

ما راق طرفي بعدها منزلٌ * لأنها في الحسن ذات العماد**

وكتب إليه أيضًا:

أوحشتني يا عُمدتي * وعلى الحقيقة يا عمادي**

يا من غدا وشعاره * بين الورى بذل الأيادي**

وله محاسن نشرها * متضوع في كل ناد[٣].**

ومن هذه الأبيات وغيرها مما أنشده الصفدي في حق اليوسفي تتضح المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها آنذاك، وقد أكد الصفدي على قدرة اليوسفي على نظم الشعر بقوله: "وكان يكتب إلينا قصائد وغيرها، فأحتاج إلى أن أجيبه عن ذلك"[٤]؛ إذن فالصفدي هو المجيب وقد أورد بالفعل بعضًا مما كتبه إلى اليوسفي، ولكن للأسف لم يورد شيئًا مما نظمه اليوسفي أو أرسل إليه به.

مؤلفات اليوسفي:

ترك اليوسفي مؤلفات ذات قيمة علمية كبيرة، لا تقل عن مؤرخي تلك الفترة من المتخصصين فيه – رغم أنها كانت على ما يبدو هواية عنده[٥]– ولا غرو في ذلك فقد اجتمع لدى اليوسفي عدة

---

(١) أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٧: ٤٨٨.

(٢) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٨.

(٣) للمزيد انظر أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٩: ٤٩٠.

(٤) أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٩.

(٥) إذ يمكن اعتبار اليوسفي ضمن أولئك المؤرخين الذين وصفهم شاكر مصطفى بقوله: ".... وبعض الأمراء.... الذين كانوا يجدون السعة في الرزق ما يسمح لهم باتخاذ التاريخ هواية" وأنه قد ساعد هؤلاء أن أمر الكتابة في التاريخ لم تكن تحكمه قيود شديدة تجعله صعب المنال مثل علم الحديث أو التفسير مثلاً. للمزيد انظر التاريخ العربي والمؤرخون، ج٣، ص١٨، ٢١.

عوامل ساعدته على الكتابة التاريخية، فإلى جانب موهبته ساعده أيضًا إطلاعه على دقائق الحياة السياسية والإدارية، وألوان القوى والأهواء التي تتلاعب بها وتُسيِّرها؛ فمن الطبيعي أن يتيّسر له مثل ذلك أكثر من غيره من كتاب تلك الفترة، حتى ترك اليوسفي ثروة علمية تتمثل فيما سطر من مؤلفات، يأتي على رأسها كتاب "نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر"(١).

ومنها كما ذكر اليوسفي أنه اختصر شيئًا في مدح النبي(ﷺ) والصحابة للشيخ فتح الدين بن سيد الناس اليعمري حيث قال: "وله أشياء في مدح النبي والصحابة اختصرناه"(٢).

كما نُسب إلى اليوسفي كتاب آخر تحت عنوان "كشف الكروب في معرفة الحروب"(٣) وهو أمر يدعو للشك، خاصة أنه لم يرد ذكره في المصادر التي ترجمت لليوسفي، أضف إلى ذلك أن بعضًا ممن نسب الكتاب إليه ذكر أنه ألفه للسلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م)(٤)، وذلك مما زاد من الشك في نسبة الكتاب إلى اليوسفي، فكيف لكاتب توفي سنة (٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م) أن يؤرخ لسلطان توفي سنة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م). وقد ذكر محقق نزهة الناظر أنه اطلع على ذلك الكتابة دون أن يحدد اسم السلطان جقمق في حديثه عنه(٥). وأقصى ما ذكره الصفدي عن مؤلفات اليوسفي الأخرى – بعد حديثه عن كتاب نزهة الناظر – هو قوله: "وله غير ذلك" دون تحديد أو ذكر لشيء من ذلك(٦).

أما عن كتاب "نزهة الناظر" موضوع الدراسة فقد ابتدأه بدولة السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠م) وانتهى فيه إلى سنة (٧٥٥هـ/ ١٢٥٤م)(٧). وللأسف لم يصل إلينا من هذا المؤلف سوى الجزء موضوع الدراسة، ويشمل التأريخ لسنوات (٧٣٣- ٧٣٨هـ/ ١٣٣٢-

---

(١) سيأتي الحديث عنه مفصلاً فيما يلي:

(٢) نزهة الناظر، ص٢١٧، وعن مؤلفات ابن سيد الناس انظر الصفدي، أعيان العصر، ج٥، ص٢٠٦: ٢٠٧، الوافي، ج١، ص٢٩٣.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، مقدمة التحقيق، ص٥٢. الزركلي: الأعلام، ج٧، ص٣٢٨، شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص١٠٣. حيث ذكر أن هذا النوع من الكتابات التاريخية يقع ضمن تاريخ التعليم العسكري، وأن ذلك كان من لوازم الحياة العسكرية آنذاك، والتي كانت جزء من حياة الحكام.

(٤) الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٣٢٨، شاكر مصطفى، وقد زاد على ذلك بقوله: "وقد ألفه للسلطان الظاهر جقمق وتحدث فيه عن فن الحرب ونظام الجند وقد رتبه على عشرة أبواب" التاريخ العربي، ج٣، ص٢١٨.

(٥) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، مقدمة التحقيق، ص٥٢، حاشية (١).

(٦) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٨.

(٧) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٨، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٤٨١، حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، عمود ١٩٤٨، الزركلي: الأعلام، ج٧، ص٣٢٧، ويحدد البعض تاريخ البدء في أحداث الكتاب بسنة (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص٨٨، ٢١٧.

١٣٣٧م)[١]؛ ما عدا ذلك فيعد مفقودًا، ولم يصل منها سوى الشذرات التي اقتبسها من اعتمد على اليوسفي من مؤرخي تلك الفترة وأبرزهم العيني[٢] والمقريزي وابن حجر العسقلاني.

ويمكن أن نُرجع السبب في ضياع هذا المصدر إلى أن صاحبه ليس من أهل العلم، ممن لهم طلاب أو أتباع ينقلون عنهم أو ينسخون كتبهم ويحفظون مؤلفاتهم وينقلونها لمن بعدهم؛ ومن ثم تذيع شهرتها ويتناقلها الأجيال، وربما كانت طريقة اليوسفي نفسه في التعامل مع مؤلَفه سببًا من أسباب عدم شهرته، إذ يفهم مما أورده الصفدي أن اليوسفي وضع هذا المؤلف لنفسه حيث قال الصفدي: "جمع لنفسه تاريخًا كبيرًا"[٣].

وربما قصد بكلمة "لنفسه" أنه لم يخرجه للنور أو يساعد في نشره وتعريفه لأهل ذلك العلم، وإن صح هذا الافتراض فيكون دافع اليوسفي هو خوفه من معرفة رأيه في السلطان ورجال دولته آنذاك، ولذا احتفظ به لنفسه ولم يخرجه للنور في حياته، ولم يعلم به إلا المقربين من اليوسفي، ولذلك لم يلق الكتاب الاهتمام الأمثل، أو الشهرة التي يستحقها.

أما عن زمن تدوين الكتاب فلم تفصح المصادر أو حتى المراجع عن شيء يخص ذلك، ولكن بالاطلاع على الكتاب، وما حوى من معلومات وتفصيلات تاريخية على درجة عالية من الدقة؛ نجد أنه من المرجح أن هذا المؤلَف دون في حينه، إذ يصعب الاعتماد على الذاكرة فقط في تدوين مثل ذلك العمل، ولكن آراء المؤرخ الجريئة في السلطان ونقده لكثير من تصرفاته وقدحه في بعض رجال دولته[٤]، أمر يدعو إلى الشك في ذلك، ولكن يمكن أن نزيل ذلك الشك ونزيد من الترجيح السابق، إذا سلمنا بأن اليوسفي وضع ذلك التاريخ لنفسه كما ذكر الصفدي[٥] مشبعًا به هوايته، مستغلاً مكانته، وما تحت يده من معلومات، ولم يقصد من كتاباته التملق إلى السلطان أو أحد رجال دولته.

وعليه يمكن القول: إن الكتاب دُوِّن أثناء وقوع الأحداث، ولكن دون نشره أو الإعلان عما يكتب فيه لأنه وضعه لنفسه. والأرجح أن اليوسفي وضع مسودته وقت وقوع الأحداث، ثم دونه بعد ذلك اعتمادًا عليها وعلى ما هو مخزون بالذاكرة، ويدعم هذا الترجيح وجود بعض العبارات التي جاءت في طيات حديث اليوسفي، إذ نجده قد أضاف بعض معلومات تنتمي لسنوات لاحقه، أو ربما نراه

---

(١) عن كيفية الحصول على هذه النسخة انظر اليوسفي: نزهة الناظر، مقدمة المحقق، ص٥: ٤١.

(٢) عنه انظر طه خليل: دراسة وتحقيق قطعة من مخطوط عقد الجمان. ص٨٠، كريمة عسقلاني، تحقيق: مخطوط عقد الجمان، ص٩٠، ٩٤، ١١٠، ١١٣، ١١٥.

(٣) أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٧.

(٤) وهو أمر قلما نجده عند معاصريه أو مؤرخي تلك الفترة أمثال أبوالفدا والنويري وابن أيبك الدواداري والصفدي أو حتى متأخرين عنه أمثال المقريزي وابن تغري بردي وابن إياس وغيرهم.

(٥) أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٨.

يحقق في أحد المواقف ويعلق قائلاً: "وظهر من ذلك ما سنذكره في موضعه"[١].

ومنه أيضًا شغفه في معرفة بعض الأمور والتي يظل يتحين الفرص لمعرفة حقيقتها، حتى بعد وفاة السلطان، من ذلك تحقيقه في قضية مقتل أحد الأمراء واتهام السلطان وطبيبه في الأمر؛ إذ به يتحرى الموقف بعد وفاة السلطان، وذلك عن طريق سؤال الطبيب[٢]. على أية حال ومهما اختلفت الآراء فلاشك أننا أمام عمل يستحق الاهتمام ومؤرخ جدير بالإشادة.

القيمة العلمية لكتاب "نزهة الناظر":

بالرغم من رواج سوق التدوين التاريخي في العصر المملوكي ونتاجه العلمي الذي لا يقع تحت حصر، فإن البعض منها فقط تميز بالأصالة والتفرد بالمعلومات، مما جعلها دون غيرها أشبه بالمصادر الأمهات التي لا يستغنى عنها مؤلف لاحق أو حتى معاصر لها، وقد عُد كتاب "النزهة" ضمن تلك الأمهات، بل واحدًا من مصدرين أساسيين اعتمدهما كل من أرخ لحوادث مصر في تلك الفترة[٣].

وكتاب اليوسفي يُعد من ذلك النوع المعروف بالسير، وقيل عنها :" هي أولى خطوات المؤرخين في محراب التاريخ"[٤]. وقد بذل فيها المؤرخون المسلمون جهودًا مضنية، وأنها قد استأثرت بالاهتمام الأكبر لدى المؤرخين المسلمين، خاصة في العصر المملوكي، ثم ما لبثت أن اتسعت الكتابة فيها حتى شملت كل مناحي الحياة من سياسية وعسكرية وإدارية واجتماعية وثقافية وغيرها، مما يعني اتساع وشمول المنظور التاريخي، حتى شمل كل شرايين المعرفة[٥].

ولا غرو في ذلك لأن محورها الإنسان وكل نشاطه[٦]، وهو أمر له أهميته في هذا النوع من الكتابات[٧]، وبما أن الأخبار والأحداث زائدة بزيادة الأيام[٨]؛ فمن الطبيعي أن تتباين مثل هذه الكتابات تبعًا لاهتمام وتركيز المسطرين لها، وإذا نظرنا إلى كتاب نزهة الناظر سنجده يتحدث عن

---

(١) نزهة الناظر، ص١٥٩، وعنه أيضًا انظر، ص١٦٢.

(٢) نزهة الناظر: ص١٦٢، وعنه أيضًا انظر: ص٣٦٣.

(٣) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، وقد ذكر أن المصدر الثاني هو كتاب "زبدة الفكر" لبيبرس الدواداري، للمزيد انظر ج٣، ص٣٤.

(٤) عبدالعليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص٢١٨.

(٥) وسوف يتضح ذلك في الجزء الخاص بدراسة مضمون أو محتوى الكتاب.

(٦) عبدالعليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص٢٤: ٢٥.

(٧) عنه انظر شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص١٠١: ١٠٣.

(٨) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٢٢٦.

سيرة السلطان الناصر محمد[١]، مع التركيز على الأحداث في مصر بشكل عام؛ وذلك بحكم إقامته فيها. ويزيد من مكانة هذا الكتاب على غيره من كتب السير أنه كُتب بيد أحد رجال الدولة[٢]، فضلاً عن عوامل أخرى ومنها أنه :-

أ- شاهد عيان:

ترجع أهمية الكتاب في المقام الأول إلى كون اليوسفي شاهد عيان للكثير من الأحداث التي سطرها في كتابه، بل ومشاركًا في بعضها، فكثيرًا ما يقول: "لقد رأيت"[٣] و"حضرت كذا"[٤] و"وجدته"[٥] وكذلك "اتفق لي"[٦] و"أقمنا"[٧] و"ركبنا"[٨] وكذا "كنت ممن صحبه ذلك اليوم"[٩] أو "كنا نجتمع عنده"[١٠] و"اتفق ذلك اليوم بحضوري"[١١] أو "عاينه كاتبه مسطر هذا المجلد المبارك"[١٢] وغير

---

(١) الناصر محمد بن قلاوون الصالحي، التاسع من سلاطين المماليك بمصر، ولد عام ٦٨٤هـ بويع له بالسلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف خليل ٦٩٣هـ وكان في سن التاسعة وهذه سلطنة الأولى واستمرت لمدة عام، إذ عزل عن السلطنة باغتصاب كتبغا ثم حسام الدين لاجين لها، وظل كالمحبوس بالقلعة لمدة عامين ثم نفى إلى الكرك، وفي عام ٦٩٨هـ أعيد إلى السلطنة، ولكن كان كالمحجور عليه مع نفوذ الأمراء، وعليه خلع نفسه ثانية سنة ٧٠٨هـ وتسلطن بيبرس الجاشنكير بعد أن اغتصبها لنفسه، لكن لم يهنأ بها كثيرًا نظرًا لحب الناس ورغبهم في الناصر ومراسلة الأمراء له، مما ساعده على الرجوع لسدة الحكم سنة ٧٠٩هـ، ولكن هذه المرة دون وصاية أو سيطرة، وظل فيها حتى وفاته. عنه انظر أبوالفدا: المختصر، ج٤، ص١٣٤، ابن الجزري: تاريخه، ج١، ص١٩٥، ٢٤٧، ٣٣١، ٤٢٧، ٤٢٩، البرزالي: المنتقى، مج٢، ص٤٠٢: ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٣٤: ٤٣٦، ٤٣٨: ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٤٧: ٤٤٨، الذهبي: دول الإسلام، ص٣٩٠. الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٧٣: ١٠٣، ترجمة رقم (١٧٢١)، ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص٣٥: ٤٢، ٧٠، ٧٩، ٨٦، ٩٦، ١٤١، ١٤٤، ١٩٣، ٢٢٠: ٢٢١، ج٩، ص٣: ٧. محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، مج١، ق١، ص٣٢: ٣٣، علي إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٠، ص٢٩، أسامة حسن: الناصر محمد بن قلاوون، القاهرة، ١٩٩٨، ص٣: ١٦.

(٢) عدد شاكر مصطفى من هذه النوعية حوالي إحدى وثلاثين سيرة، للمزيد انظر: التاريخ العربي، ج٣، ص٩٨.

(٣) نزهة الناظر، ص١٤٨، ٣٩٩، ٤٠٣، ٤٠٥.

(٤) نزهة الناظر، ص٢١٤، ٢٧٣.

(٥) نزهة الناظر، ص٢٤٣.

(٦) نزهة الناظر، ص٢٧٥.

(٧) نزهة الناظر، ص٣٠٤.

(٨) نزهة الناظر، ص٣٩٨.

(٩) نزهة الناظر، ص١٦٤.

(١٠) نزهة الناظر، ص١٨٤.

(١١) نزهة الناظر، ص١٨٩.

(١٢) نزهة الناظر، ص٢٨١. للمزيد انظر ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧.

ذلك من العبارات التي تدل على المشاهدة للأحداث والمشاركة فيها حتى يظهر الكتاب وكأنه مذكرات خاصة(١). ولاشك أن المشاهدة تضفي على عمل المؤرخ نوعًا من الدقة؛ وعليه يمكن القول بأن اليوسفي كان شاهدًا على العصر.

أضف إلى ذلك أنه لم يكن شاهد عيان ومشارك في الأحداث وحسب؛ بل كان أحياناً مؤثرًا في سيرها مراقبًا لتطوراتها بعين التدقيق والفحص، عن طريق المعاينة والمقارنة والسؤال المستمر لتقصي حقائق الأمور، وما ذلك منه إلا حرصًا على الوصول إلى الوقائع والحقائق، وتسجيل ما يجعل القارئ ملمًا بأكبر قدر من المعلومات التي تخص أمر ما مما سطره اليوسفي، ولعل ذلك ما حدا بقائد أحد الحملات التي شارك فيها بأن يجعله عينًا له على الطرف الآخر، ويقوم بذلك بالفعل بعد نجاحه في كسب ثقة بعض المسئولين منهم(٢). ولاشك أن مثل هذا المجهود يضفي على التأريخ قدرًا كبيرًا من الشمولية والواقعية والتوثيق، بل والتميز عن غيره من المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة الذين لا يرقون لمثل طريقته؛ وعنه قال الإمام ابن حجر "وأفاد فيه كثيرًا من الوقائع والتراجم التي يحكيها عن مشاهدة"(٣).

ب–النقل عن شهود العيان:

من الخطوات المهمة نحو التوثيق التاريخي المستقل أن يلتزم المؤرخ بذكر المصادر التي نقل عنها أخباره(٤)، وحرصًا من اليوسفي على الوصول إلى الحقيقة فيما لم يشاهده بعينه؛ نجده يتقصى أثره ويحاول الوصول – بشتى الطرق– إلى مَن لهم صلة بالأحداث من قريب أو بعيد لمعرفة حقيقة الأمر، مستعينًا في ذلك بشخصيته الاجتماعية المؤثرة ومواهبه – كما سبق الإشارة– في الوصول إلى المعلومات التي تخدم كتاباته وتوثقها مع التصريح أحيانًا باسم المصدر(٥)، ناهيك عن تحريه الدقة والثقة في مصادر معلوماته، فلم ينقل إلا ممن يثق به أوما يُشتهر أمره ويُشاع خبره(٦)،وقد أكد على ذلك فى أكثر من موضع ، كما فى قوله: "استوضحت أمر ما اتفق، فأخبرني ثقة ممن كان له إطلاع في ذلك"(٧) ومالم يستوثق من خبره يجعل العهدة على الناقل(٨).

---

(١) عن ذلك وأهميته انظر، شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص٤٦، ٤٩، ٥٥.

(٢) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٤٢٣: ٤٣٢. للمزيد انظر، ص٤٠٥: ٤٠٧.

(٣) الدرر الكامنة، ص٤٨١.

(٤) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٣٧٩.

(٥) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٢٤، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٥١، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٩، ١٦١: ١٦٢، ١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٧٣، ١٧٥، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦١.

(٦) نزهة الناظر، ص١٥٤.

(٧) نزهة الناظر، ص١٥٤، ١٧٠.

(٨) نزهة الناظر، ص١٥٤، ١٥٩.

وعليه فإن اليوسفي كان مثالاً للمؤرخ الذي لا يجزم إلا بما يتحققه[١]؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل؛ فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق[٢]. وقد أشاد الإمام ابن حجر بطريقة اليوسفي في ذلك حيث قال: "وهو كثير التحري في النقل، ما يتحققه بنقله، وما لا يضيفه إلى قائله، وربما تبرأ من عهدته"[٣] وتكفي شهادة مثل ذلك القاضي حتى تؤكد على مكانة مؤلفه العلمية.

ج-تراجمه:

ويزيد من الأهمية التاريخية للكتاب أيضًا ما جاء فيه من تراجم لشخصيات كان أغلبها على صلة شخصية بالمؤلف؛ مما يمكنَّه من وضع ترجمة دقيقة ومفصلة للكثير منها، مدعمًا إياها بمعلومات وأخبار قلما نجدها عند غيره، وربما عدمت؛ لأنه سجلها نتيجة معرفة شخصية مدعومة بالصحبة والمودة العميقة مع البعض منهم، وأحيانًا يزيد من توثيق معلوماته بسؤال المقربين من الشخصيات موضوع الترجمة، كأن يكون المسئول خادمًا أو ما شابه ذلك، أو حتى طبيبًا للمترجم له، من ذلك مثلاً ترجمته لبكتمر الساقي[٤]، وكذلك للشيخ ابن سيد الناس[٥]، والأمير سيف الدين أيتمش[٦]، وغيرهم من الشخصيات التي كانت معاصرة له، مما يطفي على تراجمه بشكل عام الدقة والمصداقية.

د-الكتابات الرسمية والمراسيم:

ومما يزيد من القيمة العلمية والأهمية التاريخية لكتاب نزهة الناظر احتوائه على العديد من المراسيم والمناشير الرسمية التي قلما نجدها عند غيره، من ذلك مثلاً نسخة تقليد[٧] بتولية الصاحب

---

(١) عبدالعليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص٢١١.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ضبط وتقديم، محمد الإسكندراني، دار الكتاب، بيروت، ط٣، ٢٠٠١، ص١٦، يسري عبدالغني: معجم المؤرخين المسلمين، ص٣١.

(٣) الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨١.

(٤) بكتمر الساقي: الأمير سيف الدين الساقي الناصري كان أولاً من مماليك بيرس الجاشنكير، ولما استقر الناصر في السلطنة بعد عودته من الكرك جعله من مماليكه وقربه، حتى صار من خاصته، فلا يفارقه ليلاً أو نهارًا، فزادت مكانته عند الجميع؛ مما أوغر قلب حاسديه، وكانت وفاته أوائل سنة ٧٣٤/ ١٢٣٣م أثناء عودته من الحج وذلك بعد وفاة ابنه بثلاثة أيام، واتهم السلطان في موته، عنه انظر. ابن الجزري: تاريخه، ج٢، ص٦١٠: ٦١١ رقم (٧١٩)، اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٣٥: ١٦٢، الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص٧٠٩: ٧١٤، رقم (٤٠٧).

(٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٢٩:٢١٦.

(٦) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٢٩: ٣٣٤.

(٧) عنه انظر الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٦٦٢: ٦٦٦. وأكد اليوسفي أن التقليد كان من إنشاء الصفدي، نزهة الناظر، ص١١٧.

أمين الدين[١] نظر الخاص بالشام[٢]، وذلك في أحداث سنة (٧٣٣هـ/ ١٢٣٢م)[٣]؛ وكذلك نسخة منشور[٤] بإمرة طبلخانة[٥] للأمير ناصر الدين محمد بن الأمير بدرالدين جنكلي[٦]، ومنها منشور باسم "مهنا بن عيسى"[٧] أمير آل فضل بالشام[٨] بقرية دومة[٩]. فضلاً عن كتابات خاصة تبادلها

(١) أمين الدين بن تاج الرياسة الصاحب الرئيس الوزير الكبير أمين الملك وزير الديار المصرية والشامية، أصله قبطيًا وأسلم وتولي الاستيفاء بدلاً من خاله بعد موت الأخير وكان قد تدرب على يديه، ثم تقلب في المناصب ووزر ثلاث مرات، له معرفة كبيرة بالكتابة، كثير الأدب، زائد التواضع توفي سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م وهو تحت العقوبة والمصادرة. الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٦٥٨: ٦٧٠، ترجمة رقم (٨٦٠).

(٢) نظر الخاص هي وظيفة محدثه أحدثها السلطان الناصر محمد بعد أن أبطل الوزارة، وأصل موضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان، وصار صاحبها كالوزير بالنسبة للسلطان، وإليه تدبير الأمور وتعيين المباشرين، وليس له الاستقلال بالأمر إلا بعد مراجعة السلطان، وله الكثير من الأتباع. عنها انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠، محمد عبدالله سالم العمايرة: المعجم العسكري المملوكي، الأردن، ٢٠١٠، ص٣٤٦، رقم (١٦٢١).

(٣) عنه انظر ابن الجزري: تاريخه، ج٢، ص٥٩٠: ٥٩١، اليوسفي: نزهة الناظر، ص١١٧: ١١٨.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١١٩.

(٥) طبلخانة: هي طبول متعددة معها أبواق وزمر مختلفة تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص، تدق كل ليلة على أبواب القلعة بعد صلاة المغرب، ويصحب السلطان في الأسفار والحروب ومعنى الكلمة بيت الطبل، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرة، يعرف بأمير علم، يقف عند ضربها كل ليلة، وأمراء الطبلخاناة في الطبقة الثانية من طبقات الأمراء وعدة كل منهم أربعون فارساً وقد يزيد. عنه انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٨: ٩، ١٣، ١٥، محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٢٢، رقم (٧٦)، ص١٠٥: ١٠٧، رقم (٥٧٥، ٥٨٠)، محمد عبدالله سالم العمايرة: المعجم العسكري المملوكي، ص١٩٩، رقم (٨٨٦).

(٦) الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين جنكلي، كان من أعيان الأمراء حنبليًا فقهيًا أديبًا شاعرًا توفي في شهر رجب سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م. المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٢٣، ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٢٤٠.

(٧) مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع الطائي أمير آل فضل عرب الشام كان عفيفًا مشكور السيرة متدينًا ينخرط في سلوك الملوك تحترمه الملوك ويبالغون في إنعامه. توفي ثامن عشر ذي الحجة سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م عن ثمانين سنة. عنه انظر: ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: حمزة أحمد عباس، أبوظبي، ط١، ٢٠٠٢، ج٤، ص٣٠٩، اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٧٩: ٣٨٢، الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ٤٥١: ٤٦٨، رقم الترجمة (١٨٨٤). القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، ج٤، ص٢٠٤: ٢٠٨. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٩٢، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٦٨: ٣٧٠، ترجمة رقم (١٠٠٤). ابن تغري بردي: المنهل الصافي، والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٨٤، ج١١، ص٣١٢، رقم (٢٥٥٩).

(٨) للمزيد عنهم انظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٣٠٩: ٣٢٢، الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ٤٦٠: ٤٦٦.

(٩) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٠٧: ٢٢١. ودومة الجندل: بضم أوله وفتحه، سميت بدوم بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول(ﷺ) وعدها البعض من أعمال المدينة. للمزيد انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٨٧: ٤٨٩.

بعض رجال العلم – ممن ترجم لهم– مع ذويهم خارج الأراضي المصرية[١]، بالإضافة إلى ما أورده من رسائل وكتابات أنشأها في فتح أحد الأبراج في سيس ومطلعها "الحمد الله الذي مكن سيوف المجاهدين عن آياس بعد الأياس إرغامًا للكفر وقهرًا....."[٢].

ناهيك عما ختم به النسخة موضوع الدراسة من رسالة في فضل غزوة سيس كتتمة أو خاتمة لفضل الغزوة على حد قوله، وأن ذلك كان بناءً على طلب بعض الأصحاب منه، وبالاطلاع عليها يتضح مدى أهميتها وأن ما ورد فيها يعد توثيقًا تلك الغزوة وشرحًا مفصلاً[٣]. أضف إلى ذلك ما تضمنته من نصوص للرسائل المتبادلة بين السلطان وبعض أمراء دولته[٤]، وكذلك بينه وبين الملوك المعاصرين[٥].

(١) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٢٠: ٢٢١.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٤١٧: ٤١٩.

(٣) نزهة الناظر، ص٤١٧: ٤١٩.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٥٣، ٢٥٦، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٩٢: ٢٩٣، ٣٠٧: ٣٠٨، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٧٤، ٣٩٦: ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٠، ٤١١، ٤١٣.

(٥) عنها انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٣٥، ٣٦٥: ٣٦٦، ٣٨٢: ٣٨٣، ٤٠٤: ٤٠٥.

ما ينفرد به اليوسفي دون غيره:

بعد الإطلاع على الجزء المتاح من كتاب النزهة ومقارنة الكثير منه بما ورد عند غيره من مؤرخي تلك الفترة؛ اتضح مدى انفراد اليوسفي بطريقة جريئة في تسجيل الكثير من الأحداث، خاصة ما يتصل منها بالجوانب الإدارية، إذ سلط الضوء على الكثير من مفاسد الإدارة آنذاك، وخاصة دور ناظر الخاص المعروف بالنشو(١) فيها، مؤكدًا على مدى الفساد الحاصل والظلم الواقع على الكثير من الناس، سواء الرعية أو الولاية والعمال؛ نتيجة الحرص الشديد على جمع الأموال بأي شكل من الأشكال، مع الإشارة إلى رأي السلطان في ذلك، وقد ظهر مما سطره اليوسفي رضا السلطان، بل ومباركته لسعي النشو، دون النظر إلى العواقب، بل المهم جمع المال مهما كان ثمن ذلك، ويزيد بأن السلطان قد وجد ضالته – فيما يخص جمع المال– في النشو(٢)، وهذه كلها أمور لم أجدها عند الكثير من مؤرخي تلك الفترة(٣)، وهو ما يزيد من مكانة الكتاب، ويؤكد على تفرده في أمور دون غيره، لاسيما وأنه أحد مقدمي الدولة وضمن أمرائها، وأنه قابل السلطان أكثر من مرة(٤)، ورغم ذلك سجل ما رآه ونقل الصورة كما كانت، وإن قال قائل بأن اليوسفي ربما كان يبغض السلطان ورجال دولته؛ لأمكن الرد عليه بأنه حرص في الوقت نفسه على مدح السلطان والإشادة به إذا ما وجد منه ما يستحق ذلك، وذلك يعني بل يؤكد على حياديته، مع حرصه على إبداء رأيه بكل صراحة وجرأة حين يتطلب الأمر ذلك(٥).

ورغم كل ذلك لم ينل كتاب النزهة ما نال غيره من كتابات تلك الفترة من الشهرة والصيت، وربما رجع ذلك إلى ضياع باقي أجزائه، مما جعل الاستفادة منه محدود في عدة سنوات فيه لا تتعد

---

(١) النشو: شرف الدين عبدالوهاب بن التاج فضل الله ناظر الخاص كان أبوه يكتب عند الأمير بكتمر الحاجب وهو ينوب عنه، ثم انتقل إلى مباشرة ديوان الأمير أركتمر الجمدار، ثم ولى استيفاء الدولة، ثم باشر ديوان الأمير آنوك ابن السلطان، ثم أظهر الإسلام، إلى أن وصل إلى نظر الخاص السلطاني، فبلغ ما لم يبلغه أحد من الأقباط في دولة الترك، وتقدم عند السلطان وخدمه جميع أرباب الأقلام، فظلم واستولى على الأموال وصادر رجال الدولة، ولازال على مكانته إلى أن أوقع البعض به عند السلطان فعزله وصادره وعاقبه حتى مات تحت العقوبة سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. عنه انظر الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٢٠٠: ٢٠٤ ترجمة رقم (١٠٦٠)، المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢٩٠.

(٢) للمزيد انظر نزهة الناظر، ص١١٩: ١٢١، ١٢٨: ١٢٩، ١٣٠: ١٣٢.

(٣) وقد تأكد ذلك بالإطلاع على أحداث الفترة نفسها عند أغلب المؤرخين مثل أبوالفدا، والنويري، والصفدي والمقريزي وابن تغري بردي.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٣٤، وهو بذلك قد خالف قول القائل بأن صحبة الملوك مفسدة، شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٩٠.

(٥) عن أهمية ذلك في كتابة التاريخ انظر، عبدالعليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص١٠٢: ١٠٣.

الست سنوات؛ وعليه لم يجد الكثير من باحثي تلك الفترة ضالتهم، ولذا قل ذكره بين المصادر المعتمد عليها من الباحثين والدارسين، إلا من تعرض منهم لتلك الفترة فقط.

وفاته:

أما عن وفاة المؤرخ موضوع الدراسة فكانت بالقاهرة أوائل سنة (٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م)[١] ولم تفصح المصادر عن عمره آنذاك أو عن ظروف وفاته؛ وما إلى ذلك مما يمكن أن نستشف منه المعلومات التي تساعدنا على معرفة أية شيء عنه في أواخر حياته.

وكل ما ذكر عن ذلك هو أنه: "لم يزل على حاله إلى أن وهي ركن العماد، ومال إلى خراب عمره ومادّ"[٢] ولم يكن من السهل التعرف على ما يقصد بتلك الكلمات؛ والتي تحمل الكثير من المعاني، ويمكن تفسيرها على أوجه واحتمالات عدة[٣].

ملامح عصر اليوسفي:

عاصر اليوسفي سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الذي تردد في السلطنة ثلاث مرات وعُزل مرتين في الفترة (٦٩٣-٧٤١هـ/ ١٢٩٣-١٣٤٠م) فمن المعروف عن المماليك أنهم لا يؤمنون بمبدأ الوراثة في الحكم[٤]، وعليه لم يكن من المقبول أن يفرض السلطان ابنه على السلطنة، وإن حدث ذلك فسرعان ما ينتهي الأمر بالتخلص من السلطان الجديد، ويتولى مكانه أحد الأمراء الكبار، معتبرين ذلك أمر طبيعي؛ على اعتبار أنهم جميعًا زملاء، ورغم معرفة وإيمان سلاطين المماليك بذلك المبدأ، فإن غريزة الأبوة كانت تدفعهم إلى العهد بالولاية لأبنائهم، والتي – وإن تحققت لهم بالفعل– لم يهنئوا بها. لكن رغم كل هذا نجح أحد أبناء السلاطين في إثبات عكس ذلك وهو الناصر محمد بن المنصور قلاوون، إذ شاءت الأقدار أن يمتد حكم أبناء وأحفاد المنصور قلاوون حتى عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م[٥].

أما عن الناصر محمد صاحب السيرة فقد كانت فترة حكمه أطول فترة حكم فيها سلطان مملوكي، كما كانت تتسم بملاحم فريدة لم تُرى عند غيره، إذ وصل إلى السلطنة بعد مقتل أخيه سنة (٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م) ولا يتجاوز التاسعة من عمره، لذا سيطر عليه رجال دولته، بل سرعان ما عزل سنة

---

(١) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٨، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨١.

(٢) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٨.

(٣) فكلمة حاله الواردة هذه ربما يقصد بها حالته العملية وربما الصحية أو حتى الأدبية، وجملة "وهي ركن العماد" ربما يقصد بها صحته وحالته الجسمانية وربما مكانته الاجتماعية أو العملية، وجملة "مال إلى خراب عمره ومادّ" ربما يقصد به التقدم في العمر، وربما يقصد أنه فعل شيئًا ما وتمادى فيه أو أصر عليه مما أدى إلى غضب السلطة عليه لسبب من الأسباب التي جرها على نفسه، مما أدى إلى معاقبته فكان خراب عمره، والعلم في ذلك عند الله.

(٤)سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٠، ص٢٤٦، عبدالمنعم ماجد: نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، النظم السياسية، الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩، ص٤٧.

(٥) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، مج١، ق١، ص٧٣.

(٦٩٣/ ١٢٩٤م) ثم أعيد إليها سنة (٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م) واستمر بها إلى سنة (٧٠٨/ ١٣٠٨م)[١] وهي سلطنته الثانية، ولأنه كان لا يزال صغيرًا لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره سيطر عليه رجال دولته، إذ كان معهم كالمحجور عليه[٢]؛ مما دفعه إلى التنازل عن السلطنة سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م[٣]، ثم أعيد إليها مرة ثالثة سنة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م) وذلك بمساندة الأمراء وتأييدهم له، فضلاً عن حب الناس والتفافهم حول الناصر محمد[٤].

وكان الناصر محمد آنذاك قد بلغ مبلغ الرجال، ناهيك عما اكتسبه من خبرة في التعامل مع الأمراء، وقدرة على كبح جماح الطامحين منهم للحكم[٥]، واستمرت سلطنته هذه حتى وفاته سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م أي حوالي اثنتين وثلاثين سنة، وهي مدة لم تتحقق لغيره من سلاطين المماليك في مصر، وقد وصف عهده بـ "أعظم عصور التاريخ المصري زمن سلاطين المماليك وأكثرها ازدهارًا ورقيًا واستقرارًا"[٦] خاصة في المجال السياسي، حتى قيل: "ولم يخرج عليه أحد"[٧] وأن الأرض انذاك قد خلت من المعارضين له .[٨] ونلمس ذلك في كثير من الكتابات المعاصرة، إذ لم تظهر على الساحة السياسية ثورات أو عداوات ظاهرة مقارنة بغيره[٩].

---

(١) عنه انظر الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٧٩: ٩٠.

(٢) للمزيد انظر أبوالفدا: المختصر، ج٤، ص٥٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٧٥، أسامة حسن: الناصر محمد، ص٢٥: ٣١.

(٣) عنه انظر ابن الجزري: تاريخه، ج١، ص٧٠: ٩٥، ١٤١، ١٤٤، ١٩٣، ٢٢٠: ٢٢١، البرزالي: المقتفى، مج٢، ٤٠٢: ٤٤٨، الذهبي: دول الإسلام، ص٣٩٠: ٤٠٤، ابن حجر: الدرر، ج٤، ص١٤٤: ١٤٥، رقم الترجمة (٣٨٤)، محمود شاكر: الدولة المملوكية، ص٣٦: ٣٩.

(٤) للمزيد انظر، أبوالفدا: المختصر، ج٤، ص٥٦: ٥٨، البرزالي: المقتفى، مج٢، ص٤٣٨: ٤٣٩، ٤٤٧، الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٧٤، المقريزي: السلوك، ج٢، ص١٣، ابن حجر: الدرر، ج٤، ص١٤٤: ١٤٨، ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٣: ٧، محمود شاكر: الدولة المملوكية، ص٣٦: ٣٩، أسامة حسن: الناصر محمد، ص٣٣: ٣٩.

(٥) الدوادري: كنز الدرر، ج٩، ص٣٧٠، المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٧٠: ١٧١، ٢٤٨، ٣١١، محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون، ص٥٢، أسامة حسن، الناصر محمد، ص٤٠: ٤٤.

(٦) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٨١.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص١٤٧.

(٨) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٧٤.

(٩) عن أمثلة لذلك حدثت في عهود أخرى انظر بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالدس ريتشاردز، المعهد الألماني، بيروت، ط١، ص١٩٩٨، ص١٨١: ١٨٢، النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص١٤: ٢٤، ٧٧: ٧٩، ١٢٥، مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق: محمد كمال عزالدين، دمشق، ط١، ٢٠١٧، ص١٠٧: ١٠٨، المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٤٠: ٤٥١، سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٢٩: ٢٣٥.

وزادت مكانته وهيبته في نفوس الأمراء ورجال الدولة، حتى قيل: " أن الأمراء إذا وقفوا بالخدمة لا يجسر أحد منهم أن يتحدث مع رفيقة بكلمة واحدة، ولا يلتفت نحوه خوفًا من مراقبة السلطان لهم"(١).

ومما يتصل بالسياسة آنذاك أيضًا أمر الخلافة العباسية، التي تم إحياؤها في عهد السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٥٩-١٢٧٧م) وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م واتخذت القاهرة مقرًا لها(٢)، واستمرت كذلك حتى سقوط دولة المماليك ودخول العثمانيين مصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. ورغم المكانة الروحية للخلافة الإسلامية في نفوس الناس؛ فإن الخليفة آنذاك لم يكن له سوى الاسم فقط "وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين"(٣). وربما زاد تجرؤ السلطان على الخليفة بأن يعزله أو يعتقله أو يحدد إقامته، ومن ذلك ما فعله الناصر محمد سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م بالخليفة المستكفي(٤).

ومما كان يؤثر على الحياة السياسية آنذاك العربان وثوراتهم، وهو ما عانت منه الدولة كثيرًا، إذ كانوا مصدرًا للفتنة والاضطرابات للحكام والمحكومين معًا وكثر شرهم(٥)، وفي عهد الناصر محمد

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٠٩.

(٢) بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ ومقتل آخر خلفائها وهو المستعصم على يد التتار أصبح العالم الإسلامي بدون قيادة، مما ترك ألمًا وحسرة في نفوس المسلمين الذين اعتادوا على وجود خليفة منذ عهد النبي(ﷺ)، لذا كان أمر إحيائها مرة ثانية يمثل عملاً دينيًا وروحيًا عند المسلمين، وكان بيبرس قد أقبل على هذه الخطوة حتى يفوز بالسند الشرعي والتأييد الجماهيري لحكمه، خاصة مع نظر البعض لأصله الغير حر، وبالفعل تم ذلك. للمزيد انظر، بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ص٦٠: ٧١، مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ج١، ص١١٦، سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٣٥٠: ٣٥٥.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ الخطط المقريزية، مكتبة كلية الآداب، القاهرة، د. ت، ج٣، ص٣٩٤، وللمزيد عن سلطة الخليفة آنذاك انظر، عبدالمنعم ماجد: نظم المماليك، ص٣٤: ٤٨.

(٤) المستكفي: سليمان بن أحمد بن علي أبوالربيع الخليفة المستكفي بالله بن الحاكم بأمر الله من خلفاء الدولة العباسية الثانية بمصر، ولد سنة ٦٨٤هـ وخطب له بمصر بولاية عهد من أبيه سنة ٧٠١هـ وتوفي بقوص منفيًا سنة ٧٤٠هـ وذلك بعد عزله من الخلافة، عنه انظر أبوالفدا: المختصر، ج٤، ص١٢٢، ١٣٢، الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ٤١٩: ٤٢١، ترجمة رقم (٧٠٨). ابن كثير: البداية، ج١٨، ص٣٨٦، المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢٠٦، ٢١٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٥١، السيوطي: تاريخ الحلفاء، ص٤٨٤: ٤٨٦، محمود شاكر: الدولة المملوكية، ص٥٧: ٥٩.

(٥) عنه انظر النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٧٥: ٣٧٦، سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٣٢٤. وللمزيد انظر شيماء عبدالفتاح محمود سالم: شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري ت:٧٣٩هـ/ ١٣٣٩م وكتابه تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه والمعروف بتاريخ ابن الجزري (٦٨٩-٧٣٨هـ/ ١٢٩٠-١٣٣٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإنسانية، ٢٠٢١، ص٣٣: ٣٧.

تكررت ثوراتهم وذلك في سنوات ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م[١]، ٧٠١هـ/ ١٣٠١م[٢]، ٧١٣هـ/ ١٣١٣م[٣]، ٧١٥هـ/ ١٣١٥م[٤]، وأكدت المصادر على نجاح الناصر محمد في التصدي لهم، حتى قيل: "ولم يتفق اجتماع هؤلاء لملك قبله"[٥].

أما على صعيد السياسة الخارجية، فقد أثبت الناصر محمد كفاءة وكفاية واضحة، تمثلت فيما حقق من انتصارات على مغول فارس[٦] سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م[٧]، وقد حدثت محاولات عدة للتقارب والتصالح بين الطرفين[٨]، لكن لم يتم ذلك إلا في عهد الناصر محمد[٩]. إذ تحولت العداوة إلى صداقة وتبادل للسفارات والهدايا[١٠].

أما عن علاقته بالعنصر المغولي الآخر المتمثل في مغول القفجاف، فقد اتسمت بالوفاق والود والمصلحة المشتركة التي تجلت في عقد تحالفات سياسية بين الطرفين، وتردد الرسل والسفراء

---

(١) انظر بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ص٣٥١، مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ج١، ص٣٧١، المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٤٠.

(٢) عنها انظر النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٥: ٨، المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٤٦.

(٣) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ج٢، ص٥٥٠، المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٨٩

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٥٠٥، وللمزيد انظر، ج٢، ص٥١٦، ج٣، ص١٦ وأسامة حسن: الناصر محمد، ص٣١.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢٣، ١٧٨: ١٧٩، ٢٤٦.

(٦) بعد أن قضى هولاكو على الخلافة العباسية في بغداد وأطاح بالأيوبيين في بلاد الشام وامتدت حملاته نحو أسيا الصغرى تأسست هذه الدولة في إيران، وتعرف بالدولة الإيلخانية، وقد جاورت دولة المماليك مما أدى إلى الصدامات المتكررة بين الطرفين. للمزيد عن العلاقات بين الطرفين، انظر: مجدي محمد الصاوي: التحالفات السياسية وآثارها في دولة المماليك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م، ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، قسم التاريخ والحضارة، ٢٠١٨، ص١٠٩: ١١٦، ١٦٠: ١٦٧.

(٧) وذلك بعد هزيمة منيت بها الجيوش المملوكية سنة ٦٩٩هـ في موقعة وادي الخزندار، انظر، أبوالفدا: المختصر، ج٤، ص٦١: ٦٢، ابن كثير: البداية، ج١٨، ص٢١: ٢٩، المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٥٤: ٣٦١، السير وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمد عابدين، سليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥، ص٥: ٦، ١١.

(٨) عنها انظر، الدوادري: كنز الدرر، ج٩، ص٣١٢، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٨، ص٥: ٦، ١١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣١٠، سهيل طقوش: تاريخ المماليك، ص١٩٤، مجدي الصاوي: التحالفات السياسية، ص١٦٤: ١٦٦، شيماء عبدالفتاح: ابن الجزري، ص٣٧: ٤٥.

(٩) للمزيد انظر الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٩٤، السير وليم: تاريخ دولة المماليك، ص٨٩: ٩١، مجدي الصاوي: التحالفات السياسية، ص١٦٤: ١٦٥.

(١٠) عنها انظر: الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص٣٠٨، ٣١٢، ٣١٥، ٣٥١، ٣٦١، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، المقريزي: السلوك، ج٢، ص٥٢٥: ٥٢٦، ج٣، ص٢٩، ٦١، ٦٣، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٨، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١٤٥، ١٩٥، ٢٠١: ٢٠٢، ٢١٣، ٢٢٠، ٢٣٥، ٢٤١، مجدي الصاوي: التحالفات السياسية، ص١٦٤: ١٦٧.

المحملين بالهدايا بين الطرفين بل تطرق الأمر إلى زواج سياسي[١].

أما فيما يخص الأرمن لم يكن هؤلاء أحسن حالاً من سابقيهم، إذ تعرضوا للهزائم والتهديدات المتكررة من قبل المماليك على عهد الناصر محمد، والذي أثبت قدرته على إضعاف هؤلاء من خلال حملاته عليهم[٢]، بل خُطب له ببلاد الروم و"بماردين وحصن كيفا وبغداد وغيرها من بلاد الشرق، وهو بكرسي ملك مصر، وأتته هدية ملوك المغرب، والهند والصين والتكرور والنوبة والترك والروم والفرنج"[٣].

وفتحت على يديه الفتوح[٤]، حتى قيل: "وقد ذلت له رقاب المشركين، وخضعت له الملوك الجبابرة من كل دين"[٥] وقيل أيضًا: "لم يرى أحد من سعادة ملكه وعدم حركة الأعادي عليه برًا وبحرًا مع طول المدة"[٦] وبالجملة "لم يعهد في أيام ملك قبله ما عهد في أيامه من مسالمة الأيام له"[٧].

ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الاستقرار على كل مظاهر الحياة من إدارية[٨] واقتصادية[٩] واجتماعية وكذلك علمية[١٠] وعمرانية[١١]، حتى قال الدواداري: "وقد اعتبرت منذ أول زمان حتى آخر وقت، لم أجد زمانًا أكثر خيرًا وأمانًا وخصبًا، وإقامة منار الإسلام من ساير الممالك الإسلامية من زمان مولانا السلطان... إنه لم يكن في زمان أكثر خيرًا وأمنًا وخصبًا من هذا الزمان"[١٢] وزاد على ذلك بقوله: "... فهل رأيت مذ مكنه الله من رقاب أعدائه المتمردين من خلل وقع في أمر

---

(١) عنه انظر الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص٣٠٢: ٣٠٤، اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٣٥: ٢٣٦، المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢٥: ٢٦، ٥٨، ١٨٤، ٢٢٢، محمود شاكر: الدولة المملوكية، ص١٣٧: ١٥٦، وعن العلاقات بين مغول القفجان والمماليك، انظر: مجدي الصاوي: التحالفات السياسية، ص١٠٥: ١٠٩، ١٦٨: ١٧٠.

(٢) للمزيد انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٣١: ١٣٢، ١٣٣: ١٣٥، المقريزي: السلوك، ج٢، ص٥٠١: ٥٠٢، ٥١٠: ٥١١، ج٣، ص١٤٥: ١٤٦، ٢١٨: ٢١٩، ٢٢٠: ٢٢١، ٢٢٩: ٢٣٠، السير وليم: تاريخ دولة المماليك، ص٩١، مجدي الصاوي: التحالفات السياسية، ص١٧٠: ١٧٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣١٠.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص١٤٧.

(٥) الدوادري: كنز الدرر، ج٩، ص٣٧٣.

(٦) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص١٤٧.

(٧) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣١٣.

(٨) وصف النظام الإداري آنذاك بأنه: "كان أكثر تركيزًا" عنه انظر، عبدالمنعم ماجد: نظم المماليك، ص٥٠، ص٨٦: ٩٠.

(٩) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص١٤٧، عبدالمنعم ماجد: نظم المماليك، ص٦٦: ٨٥، أسامة حسن: الناصر محمد، ص٤٩: ٥٠.

(١٠) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٩٧، ج٣، ص٣٠٠: ٣٢٢، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص١٤٧.

(١١) الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص٣٨٢: ٣٨٤، ٣٨٨: ٣٩١، أسامة حسن: الناصر، محمد، ص٤٥: ٤٨.

(١٢) كنز الدر، ج٩، ص٣٨٤.

الدين؟ أو من حادث يشين زمانه، أو من قحط وجوع وغلاء حصل في أوانه، أو من خوف عدو نخشاه؟ كلا والله، ما كان هذا قط في أيام دولته وحاشاه، فالحمد لله الذي خصنا، إذ جعلنا من أمة نبيه... وخلقنا وأحيانا في أيام وليه محمد السلطان الأعظم الملك الناصر، والليث الكاسر، لازالت أيامه جواهر قلايد أعناق الزمن"[١]. و فلم يشهد الناس مثل أيامه[٢]؛ وقد وصفه أحد المؤرخين المحدثين ب "العامل الأول في وضع أسس السياسة العامة للدولة المملوكية، والمنفذ الأكبر لقواعدها، والمثل الأعلى للسياسي المحنك؛ إذ كان شديد البأس، سديد الرأي، مطلعًا على أحوال مملكته، محبوبًا من رعيته، مهيبًا من أمراء دولته"[٣].

أما عن خلفاء الناصر محمد، فقد توارثوا الحكم، واستمروا على عرش السلطنة حتى سقوط دولة المماليك البحرية سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م ولم يكن ذلك لقدرتهم وكفاءتهم بقدر ما كان لنظرة الرعية لهم على أنهم الملجأ والأمان؛ نظرًا لما عاشته البلاد من استقرار في عهد الناصر محمد[٤]، ولكنه للأسف لم يتحقق شيء من هذا طيلة فترات حكمهم، بسبب صغر سنهم وضعفهم، وما ترتب عليه من سيطرة الأمراء عليهم، حتى أصبح هؤلاء السلاطين أشبه بالدمى لذلك ضعفت الدولة المملوكية، واضطربت أحوالها، وكثرت الفتن في جميع الأرجاء وعلى شتى المجالات بعد وفاة الناصر محمد وحتى قيام دولة المماليك الثانية.

---

(١) كنز الدر، ج٩، ص٣٨٧.

(٢) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٧٤.

(٣) علي إبراهيم حسن: استخدام المصادر، ص٣١: ٣٢.

(٤) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٢٨٢: ٢٨٣.

المضمون والمحتوى لكتاب "نزهة الناظر"

تنوعت المادة التاريخية في النسخة التي بين أيدينا من كتاب نزهة الناظر لليوسفي ما بين موضوعات سياسية وإدارية واقتصادية واجتماعية ودينية، وقد غلبت أخبار القاهرة ووفياتها على أكثر مادة الكتاب، فسجل كل ما رآه وسمعه.

الجوانب السياسية:

شغلت الأحداث السياسية جانبًا من كتاب نزهة الناظر، حيث عرض المؤلف لجوانب سياسية مهمة ومتنوعة جاءت متفرقة في مادة الكتاب، منها ما يخص السياسة الداخلية ومنها ما يخص السياسة الخارجية.

السياسية الداخلية:

ألقى اليوسفي الضوء في كتابه على العلاقة بين السلطان الناصر محمد والخليفة العباسي سليمان أبوالربيع "المستكفي"، وبيَّن أن السلطان غضب على الخليفة العباسي لأمور سمعها عنه، منها شغفه باللهو وسماع الغناء في داره التي عمرها على جزيرة النيل لتكون متنزهًا، فضلاً عن علاقة الخليفة بأحد مماليك السلطان، الذي كان يكثر التردد إليه، مما أثر على خدمته للسلطان(١)، فأمر السلطان باستدعاء الخليفة وابن عمه وأولاده، وحبسهم بالقلعة ثم أفرج عنهم وسيَّرهم إلى قوص معتقلين(٢).

وأوضح الكتاب العلاقة بين السلطان الناصر محمد وأمراء دولته، والتي كانت تتسم غالبًا بالهدوء؛ حيث حرص السلطان على توثيق علاقته بأمرائه داخل مصر وخارجها، ويتضح ذلك من خلال بعض المواقف معهم ومدى تقديره لهم، وحرصه على أن يُظهر لكل واحد منهم أنه الأقرب إلى قلبه(٣)، لدرجة أنه كان يقوم لاستقبال أحدهم(٤)، وكذلك يستجيب لوساطتهم وشفاعتهم(٥)، وربما اعتذر لأحدهم إذا صدر منه تجاه هذا الأمير أو ذاك إهانة أو ما شابه ذلك(٦). كما عرض اليوسفي لعلاقة السلطان بنوابه بالشام، ولا أدل على هذا من طريقة استقباله وإكرامه لنائب الشام واحترامه له(٧).

---

(١) ويذكر البعض أن السبب الحقيقي في غضب السلطان على المستكفي وإعراضه عنه يرجع إلى سنة ٧٠٨هـ عندما خلع الناصر نفسه من سلطنته الثانية، واجتمع الأمراء على بيبرس الجاشنكير الذي بايعه الخليفة المستكفي بل وجدد له الولاية عندما أعرض عنه الناس، كما نسبت إليه أقوال في حق السلطان أدت إلى كره الأخير له وإعراضه عنه. للمزيد انظر المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢١٧، ٢٨٨.

(٢) نزهة الناظر، ص٣٦٢: ٣٦٣.

(٣) نزهة الناظر، ص٢٠٥، وعنه أيضًا انظر، ص١٥٠: ١٥١، ١٥٣: ١٥٥، ٢١١.

(٤) نزهة الناظر، ص١٩٢.

(٥) نزهة الناظر، ص١٦٩، ١٧٦: ١٨٤، ١٧٨، وللمزيد انظر، ص٢١٣، ٢٤٠، ٢٥٠: ٢٥١، ٢٦٥، ٣١٥، ٣١٩: ٣٢٠، ٣٢٩: ٣٣١، ٣٣٩، ٣٤٥، ٣٦٩.

(٦) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٠٥: ٣٠٧.

(٧) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٧٥، ١٩٠: ١٩٢، ٢٥١: ٢٥٣، ٢٥٦: ٢٥٧، ٢٦٣: ٢٦٤.

فضلاً عن العطايا والإنعامات التي كان السلطان ينعم بها على أمرائه داخل مصر وخارجها، كما كان يتدخل لحل الخلافات التي تقع بينهم، في محاولة لتهدئة الحال آنذاك(١)، وفي المقابل كان كثير الحيطة والحذر منهم، فإذا ما وصله عن أحدهم ما يدعو إلى الشك أو الريبة، كان لا يتردد في التخلص منه، وبطريقة تبعد عنه الاتهام أو الشبهات. مثلما فعل مع الأمير بكتمر الساقي عندما بلغه أنه متآمر عليه(٢) ، إذ به " يدبر أمره ويلاطف بكتمر..."وبالفعل عمل على سقياه بما أنهى حياته(٣).

ومن المرجح أن السلطان كان يلجأ للتخلص ممن يغضب عليهم بمثل هذه الطرق غير المباشرة، حتى لا يثير باقي الأمراء ضده، أو يصدر منهم ما يضره، أو حتى ما يعكر صفو دولته على الأقل، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مكر ودهاء الناصر محمد، وهو ما أكده اليوسفي في أكثر من موضع، فقال: "وكان فيه من المكر والدهاء ما لا يقدر عليه ملك غيره"(٤).

أما عن العلاقة بين الدولة وأمراء العرب آنذاك، فقد اكتفى اليوسفي بالتعريف ببعض بطون العرب بالصعيد، وما وصلوا إليه من مكانة وما حازوا من ثروات، مع الإشارة إلى غضب السلطان على أحد أكابرهم بالصعيد وهو مقداد(٥)،والذي ذكر اليوسفي أن السلطان قبض عليه وحبسه(٦). كما أشار اليوسفي إلى أن زيادة ثروات بعضهم كانت سببًا في الإيقاع به ومعاقبته والحوطة على أمواله، من ذلك ما ذكره عن ابن زعازع وما وصل إليه من ثروة ومكانة جعلت ناظر الخاص يعمد إليه لتخليص ما بيده من أموال، فعوقب عقوبات شنيعة وصودر "واشتملت حوطته على ألف ألف وخمس مائة ألف درهم، وستين عبد، ومائتي وعشرين جارية"(٧) وبعد حبسه تشفع له الأمراء عند السلطان فقبل شفاعتهم وأفرج عنه وأنعم عليه(٨).

---

(١) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١١٤: ١١٥، ١٢٢: ١٢٥، ١٣١: ١٣٢، ١٩٣.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٣٥.

(٣) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٣٥: ١٥٢، ١٦٠: ١٦٢، وعنه أيضًا، ص٣٢٢: ٣٢٩.

(٤) نزهة الناظر، ص١٣٧.

(٥) مقداد ويذكر مقدام بن شماس البدوي أحد عربان الصعيد الذي اشتهر أمره وكثرت أمواله وأولاده وأتباعه وزراعاته وعلت منزلته منذ أواخر دولة الظاهر بيبرس حتى سنة ٧١٣هـ/ حيث قبض عليه السلطان الناصر وحبسه، ثم ما لبث أن أطلق سراحه ورد إليه ماله وأهله وأنعم عليه، وأسكنه الناصرية التي أنشأها على خليج الإسكندرية، فأقام بها وعمر العمائر والسواقي إلى أن توفي، واستمر بها أولاده بعده. المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٨٩، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٥٦: ٣٥٧، رقم (٩٧٢).

(٦) نزهة الناظر، ص٣٤٤.

(٧) نزهة الناظر، ص٣٤٤: ٣٤٥.

(٨) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٤٥.

أما عن عرب الشام فقد اتسمت علاقتهم بالدولة غالباً بالمسالمة والموادعة، فضلاً عن الزيارات المتكررة لزعمائهم إلى مصر، وما صاحب ذلك من إنعامات، ومن أبرز هؤلاء آل مهنا وزعيمهم حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب(١)، وكانت الإمارة تتنقل بينه وبين أخيه الفضل، بمعنى أنه إذا غضب عليه السلطان جعلها لأخيه الفضل، بل ويحرص الأخير على طرد أخيه، ويؤكد اليوسفي أن الخلاف بين الأخوين كان في الظاهر فقط ، لكن مسالمة فى الباطن(٢)، وقد طرده السلطان بالفعل من البلاد أكثر من مرة(٣)، وتطور الأمر بخروج مهنا إلى التتار بالعراق عاصيًا على السلطان، ولكنه سرعان ما عاد مختارًا طائعًا للسلطان سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، وهو ما أسعد السلطان الناصر، وجعله يستقبله على أفضل ما يكون، بل وينعم عليه بإنعامات وإقطاعات، وظل تحت الطاعة حتى وفاته في أواخر سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م(٤)، واستمر الحال مع آل مهنى في مسالمة، ولكن إذا غضب عليهم السلطان أمر بالحوطة على إقطاعاتهم، وإذا رضي عنهم أعادها لهم(٥)، وهكذا مع باقي الأعراب آنذاك، كما أشار اليوسفي في كتابه إلى ما وقع من بعض بيوتهم من القلق والاعتداء على الآمنين والتجار، الأمر الذي كان يستوجب من السلطان معاقبتهم(٦).

بلاد الحجاز:

من المعروف أن السيطرة على بلاد الحجاز كان هدفًا لكل حكام المسلمين على مر العصور، وذلك لما لها من مكانة دينية، فضلاً عن أن السيطرة أو الهيمنة عليها تعطي صاحبها مكانة دينية وروحية في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، لذا نجد سلاطين المماليك منذ قيام دولتهم وهم حريصون كل الحرص على تحقيق هذا الهدف، واستمرارًا لهذه السياسة نجد السلطان الناصر محمد يعمل على بسط سلطانه على الحجاز، وجعل حكامها تابعين له، ويؤكد هذه التبعية ما كان يحدث من إرساله الخلع والإنعامات لأمراء الحجاز بصحبة أمير الحج(٧)، فضلاً عن الخلع على من يستقر في إمرة جديدة هناك(٨).

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) نزهة الناظر، ص٢٧٩: ٢٨٠.

(٣) تجدر الإشارة إلى أنه كان معترضًا على سياسة السلطان الناصر رافضًا لطريقته في الحكم، وقد نقل عنه قوله: "ومن يكون عديم الدين قليل الوفاء غدار مكار كيف يكون له طاعة تجب على كل أحد" اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٠٨.

(٤) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٩٨: ٢١٠.

(٥) نزهة الناظر، ص٣٣٨.

(٦) للمزيد انظر نزهة الناظر، ص٢٥٤، ٣٣٢، ٣٣٧: ٣٣٨، ٣٤٣: ٣٤٥، ٣٧٥، ٣٨٢.

(٧) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٤١، وأمير الحاج الشريف من أمراء المئات في الجيش المملوكي كان يتولى إمارة محمل الحج الشريف المتوجه إلى مكة المكرمة في كل عام، ويسمى أمير ركب الحجاج أو أمير المحمل، محمد عبدالله سالم: المعجم العسكري المملوكي، ص٤٢، رقم (١٥٢).

(٨) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٨٩.

ومما يؤكد على سيادة النفوذ المملوكي هناك أن كلمة أمير الحج المصري كانت تنفذ من قبل حكام الحجاز، حتى ولو أمرهم بعدم حضور موسم الحج أو وقفة عرفات(١)، كما كان أمراء الحجاز يرجعون إلى السلطان الناصر محمد للفصل فيما ينشب بينهم من خلافات أو نزاعات، والتي يتدخل السلطان لحلها بما يتمشى مع المصلحة المصرية(٢). مما يؤكد على مدى قوة وهيمنة النفوذ المملوكي على بلاد الحجاز آنذاك.

السياسية الخارجية:

اهتم اليوسفي في كتابه بالعلاقات الخارجية للدولة المملوكية في عهد السلطان الناصر محمد، فنقل أخبار الرسل القادمة من مختلف الجهات لمقابلة السلطان حاملين معهم الرسائل والهدايا، وكيفية تعامله معهم وما كان ينعم به عليهم من الهدايا والإنعامات، من هذه السفارات ما ذكره اليوسفي في أحداث سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م عن وصول رسول أزبك(٣)، ومعه خطاب منه يتضمن بعض العتاب على السلطان الناصر بسبب طلاقة لإحدى بنات القان بعد أن ألح في طلب المصاهرة معه أكثر من مرة، ثم زوجها السلطان بعد ذلك لأحد أمرائه مما أغضب العامة، وأرسل في طلبها إلا أن الناصر ادعى أنها توفيت وأشهد على ذلك فأقام الوفد بمصر أيامًا ثم عادوا ومعهم هدايا من السلطان(٤).

هذا فضلاً عن سفارات متبادلة بين الناصر محمد وبين مغول فارس، حيث كانت الرسل تتردد بين الطرفين حاملة للرسائل والهدايا(٥)، حتى أن السلطان اتخذ له مترجمين مخصوصين لذلك وعلى رأسهم الأمير سيف الدين أيتمش(٦). وكذلك سفراء على رأسهم الناصر مجد الدين السلامي(٧).

---

(١) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٤٠.

(٢) للمزيد من الأمثلة لذلك انظر، نزهة الناظر، ص٢٥٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٤١، ٣٩٣.

(٣) أزبك خان بن طغراجا بن منكوتمر بن طغان بن باطو بن دوش خان بن جنكيز خان ملك التتار أسلم وحسن إسلامه، وحرض رعيته على الإسلام فأسلم بعضهم، كان شجاعًا كريمًا يميل إلى الخير والدين، توفي سنة ٧٤٢هـ، المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٧٠، ابن تغري بردي: النجوم، ج٥، ص٦٠، ٦١، ج١٠، ص١٦٠: ١٦١.

(٤) للمزيد انظر، نزهة الناظر، ص٢١٢: ٢١٣، ٢٣٥، ٣٧٩، وعنه أيضًا انظر المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢٥: ٢٦.

(٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٠٢.

(٦) اليوسفي: نزهة الناظر، ٣٢٩: ٣٣٢.

(٧) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٧٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٨٢ والسلامي هو: إسماعيل بن محمد بن ياقوت الخواجا مجد الدين السلامي، تاجر الخاص في الرقيق، أصله من السلامية وكانت له وجاهة زائدة عند الناصر محمد وعند المغل، توسط بين المسلمين والتتار أيام القان أبي سعيد، وأثمر صلحًا بين الطرفين توفي سنة ٧٤٣هـ، ودفن بتربته خارج باب الناصر. الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص٥٢٣: ٥٢٤ رقم (٢٧٠) وللمزيد عن العلاقات بين الناصر والمغول انظر. نزهة الناظر، ص١٧٠، ٢٠١: ٢٠٣، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤: ٣٠٦، ٣٣٠، ٣٦٥: ٣٦٦، ٣٧٣: ٣٧٤.

كما أشار اليوسفي إلى تردد السفارات بين السلطان الناصر محمد وتكفور[١] صاحب سيس، وذلك بسبب التوتر الكائن بين الطرفين، وتجريد السلطان للعسكر المصري إليها أكثر من مرة، فكانت الرسل تأتي لطلب الصلح، أو استئذان السلطان في أمر ما، من ذلك ما ذكره اليوسفي في أحداث سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م عن تردد رسل سيس محملة بالهدايا من قبل تكفور تطلب وقف الغارة وعقد الصلح على تسليم القلاع للسلطان دون أن يدخل عسكر إلى بلادهم[٢]، وذلك بعد توسل رسل تكفور إلى السلطان ورفضه مقابلتهم أكثر من مرة حتى قبل الصلح معهم[٣].

كما أشار اليوسفي في أكثر من موضع إلى قضية اللجوء السياسي لدولة المماليك[٤]. بالإضافة إلى ما أورده من أخبار متنوعة تخص بعض القوى الخارجية التي تربطها صلات وعلاقات بدولة الناصر محمد، من ذلك ما ذكره اليوسفي من أخبار تخص مغول فارس وحاكمهم وبعضًا من الأحداث والخلافات السياسية هناك، والتي استمدها من مبعوث السلطان إليهم هو مجد الدين السلامي[٥].

الجوانب العسكرية:

أما عن الجوانب العسكرية في كتاب نزهة الناظر؛ فقد نالت قدرًا لا بأس به من اهتمام اليوسفي، والذي كان أحد رجال الجيش آنذاك، وشارك في العديد من التجريدات العسكرية في عهد الناصر محمد، وقد سطر اليوسفي في أحداث سنة ٧٣٧-٧٣٨هـ/ ١٣٣٦-١٣٣٧م أخبار الحملة العسكرية المجردة إلى سيس سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م[٦] والتي كان ضمن رجالها؛ وعليه فقد قدم وصفًا تفصيليًا لتلك الحملة، اعتمادًا على مشاهداته العينية فذكر سبب خروجها، وخط سيرها، وما حققته من انتصارات حتى عودتها إلى مصر، مؤكدًا على شجاعة الجند وإصرار قائدهم على تحقيق ما خرج من أجله، مع وصف دقيق لبعض الأبراج والقلاع وكيفية اقتحام المسلمين لها، وما حققوه من نصر، إلى أن تم عقد الصلح بين الطرفين وتسلم الجند المصري القلاع، وما قاموا به من هدم بعضها، وقد شارك اليوسفي بنفسه في تسلم أحد القلاع والإشراف على هدمه، وقد أفرد اليوسفي أحداث سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م لتفصيل ذلك، حتى أنه لم يورد أي أخبار أخرى في تلك السنة وقد

---

(١) التكفور لقب ملوك سيس. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٤٧، رقم (٢٣٩).

(٢) عنه انظر نزهة الناظر، ص٣٩٧: ٣٩٨، ٣٩٩: ٤٠٣، ٤١٦: ٤١٧.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٩٧، وللمزيد عن سفارات سابقة انظر ص٤٠٥: ٤٠٦.

(٤) عنها انظر، ص١٧٠: ١٧٥، ٢٠٠: ٢٠٧، ٢١٢: ٢١٣، ٣٨٢: ٣٨٣.

(٥) عنها انظر النزهة: ٢٨٢: ٢٨٣، ٢٩٠: ٢٩١، ٣٠١: ٣٠٥، ٣٣٤: ٣٣٦، ٣٦٥: ٣٦٦، ٣٧٣: ٣٧٤.

(٦) تجدر الإشارة إلى أن اليوسفي – وطبقًا لما ذكره– قد شارك في حملة سابقة على سيس سنة ٧٢٢هـ نزهة الناظر: ص٤٠٥.

ختمها برسالة في تفصيل هذه التجريدة وفضلها[١]، وهي رسالة على درجة كبيرة من الأهمية تجعلها ضمن رسائل الغزو المهمة[٢].

كما أشار اليوسفي في كتابه إلى جهاد نواب الشام ضد الفرنج، من ذلك ما ذكره في أحداث سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م عن اقتراب بعض مراكب الفرنج من سواحل طرابلس لـ "يتحرم فيه على المسلمين"[٣]. فخرج نائب الشام في أثرهم واشتبك معهم وانتصر عليهم وأسر بعضًا منهم[٤].

الجوانب الإدارية:

اهتم اليوسفي في كتابه بالنظام الإداري في دولة الناصر محمد، حيث شغل الحديث عن الإدارة في مصر الجزء الأكبر من كتابه، فقدم قائمة كبيرة من الوظائف الإدارية آنذاك، فضلاً عن أسماء العديد من الموظفين وطريقة توليهم وظائفهم وتدرجهم فيها، وكيفية ممارستهم لمهامهم، وأشار كذلك إلى ما يطرأ على بعضهم من عزل؛ وما يمكن أن يعرض لهم من العقوبة والمصادرة، وهو أمر قلما نجده عند غيره من المؤرخين.

ويشير اليوسفي أن رأس النظام الإداري هو السلطان نفسه مؤكدًا على مركزية السلطة، وحرصه على مباشرة كل شيء بنفسه وأنه لا يمكن أخذ أي قرار إلا بالرجوع إليه[٥].

أما عن الوظائف التي وردت في كتاب النزهة فمنها نيابة السلطنة بالشام، وقد عرض لذلك أكثر من مرة في كتابه، كما أوضح الطريقة التي تدار بها النيابات هناك، وأكد أن صاحب اليد الطولى في إدارة الشام، هو نائب دمشق والذي أشار إليه بنائب الشام، مؤكدًا على عظم مكانته وأنه المرجع الأول لباقي نيابات الشام، ومن لم يلتزم بذلك من باقي النواب يعرض نفسه للعقاب[٦].

كما عرض اليوسفي لوظائف أخرى ذات أهمية في إدارة الدولة آنذاك على رأسها وظيفة نظر الخاص، والتي شغلها في تلك الفترة النشو، وقد أفاض اليوسفي في الحديث عن مكانته عند السلطان، مؤكدًا على سوء سيرته، وظلمه الذي لم يسلم منه أحد[٧]، فضلاً عن شرهه لجمع المال، وهو الأمر الذي استغرق النصيب الأكبر من كتابه.

أما عن نظر الخاص بالشام فقد عرض له أكثر من مرة، من ذلك ما ذكره في أحداث سنة ٧٣٣هـ/

---

(١) للمزيد انظر نزهة الناظر، ص٣٦٤: ٣٦٨، ٣٩٤: ٤١٩.

(٢) عنها انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص١٣٩.

(٣) نزهة الناظر، ص٢٣٧.

(٤) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢٣٦: ٢٣٨.

(٥) نزهة الناظر، ص١١٥: ١١٦، ١١٧، ١٢٥: ١٢٦، ٢٩١: ٢٩٢، ٣١٧: ٣٢١، ٣٦٥.

(٦) للمزيد انظر: نزهة الناظر، ص١١٤: ١١٦، وكذلك ٢٨٨، ٢٩٢، ٣١٧: ٣٢١.

(٧) نزهة الناظر، ص١١٩.

١٣٣٢م عن تولية الصاحب أمين الدين "نظر الشام ونظر الخاص بها عوض الشمس غبريال[١] ورسم بطلبه وأخلع عليه وكتب توقيعه"[٢].

كذلك عرض لوظيفة كاتب السر[٣]، سواء في مصر أو الشام، مع ذكره لبعض ممن تولاها[٤]. ومن الوظائف التي وردت في كتاب نزهة الناظر وظيفة الدوادارية[٥]. كما عرض لوظيفة نظر الجيش[٦] في مصر والشام[٧]. وكذلك لوظيفة شاد الدواوين[٨] والتي تحدث عنها اليوسفي كثيرًا، مؤكدًا على الدور المؤثر الذي يقوم به صاحبها في سير الأحداث[٩]، مشيرًا إلى حرص النشو على السيطرة على صاحب هذه الوظيفة[١٠].

هذا فضلاً عن الكثير من الوظائف والأعمال الإدارية الأخرى التي وردت بالكتاب، ومنها

---

(١) الصاحب شمس الدين غبريال بكسر الغين وسكون الباء؛ عبدالله بن الصنيعة المصري، كان أولاً كاتب الخزانة أيام المنصور حسام الدين لاجين، ثم انتقل إلى الشام وولى نظر الجامع الأموي والأسري والأوقاف ثم عزل، وتولى نظر الدواوين بدمشق سنة ٧١٣هـ وخدم الأمير تنكز نائب الشام ونال حظوة وحظًا إلى أن قبض عليه وصودر، توفي بالقاهرة، سنة ٧٣٤هـ. عنه انظر الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٦٨٣: ٦٩٠ ترجمة رقم (٨٧٢). ويجعل اليوسفي وفاة الصاحب سنة ٧٣٥هـ. نزهة الناظر، ص٢٧٧.

(٢) نزهة الناظر، ص١١٧: ١١٨.

(٣) **كتابة السر**: وموضوعها قراءة الكتب الواردة إلى السلطان وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها، وتصريف المراسيم، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص١٢٧، رقم (٧٠٦).

(٤) نزهة الناظر، ص١٢٢: ١٢٣، ٢٥٥: ٢٥٦.

(٥) **الدوادارية**: وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد، ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩، محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٧٨، رقم (٤١٢)، محمد عبدالله: المعجم العسكري، ص١٢٧، رقم (٥٢٢).

(٦) نظر الجيش: من الوظائف الديوانية الرفيعة في دولة المماليك وموضوعها التحدث في أمر الإقطاعات والكتابة بالكشف عنها، ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطة، وهي جليلة رفيعة المقدار، وله أتباع بديوانه، ويذكره البعض بأنه المتحدث في أمر الجيوش وضبطها. عنها انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠: ٣١، محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص١٥٠ رقم (٨٤٣)، محمد عبدالله: المعجم العسكري، ص٣٤٥: ٣٤٦، رقم (١٦٢٠).

(٧) نزهة الناظر، ص١٢٣: ١٢٤، ١٣٢.

(٨) شد الدواوين: أي تفتيش الدواوين وضبط حساباتها، ويكون صاحبها رفيقًا للوزير، متحدثًا في استخلاص الأموال وما في معناها. عنها انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢، محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٩٥، رقم (٥٠٩)، محمد عبدالله: المعجم العسكري، ص١٧٦، رقم (٧٦٢).

(٩) نزهة الناظر، ص١٢١، ١٢٣: ١٢٤، ١٣٢، ٣٦٠: ٣٦٢، ٣٦٩.

(١٠) نزهة الناظر، ص١٧٧، ١٧٩، ١٨٠: ١٨٣، ١٩٦، ٢٣٠: ٢٣١، ٢٥٩.

المهمندار[١]، المشد[٢]، الحاجب[٣]، ناظر البيوت[٤]، المحتسب[٥]، نظر المارستان[٦]، نقيب الجيش[٧]، نظر الخزانة[٨]، وكالة بيت المال[٩]،

---

(١) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٠٥، ٢١٤، ٢١٥، ٣٩٧، ٤٠٠: ٤٠٢، ٤١٦.
والمهمندار من المصطلحات المركبة وصاحب الوظيفة مكلفًا باستقبال الرسل الواردين إلى السلطان وإنزالهم دار الضيافة ويتولاها أحد مقدمي الألوف، ويقوم بمهمة الترجمة بين السلطان والرسل. عنها انظر زين العابدين شمس الدين نجم: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦، ص٥١٦، محمد عبدالله: المعجم العسكري، ص٣١٧، رقم (١٤٦٥).

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٦٩، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨، ٣٧٨.
والمشد أو الشاد تعني المفتش وهو مصطلح استعمل بكثرة في العهد المملوكي، حيث كان لكل ديوان أو بيت من بيوتات المخازن السلطانية شاد مهمته التفتيش على هذه الأماكن، وأحيانًا يطلق عليه اسم مشد. عنها انظر: حسان حلاق، عباس صباغ: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص١٢٣.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٦٧، ١٦٨، ٢١٣، ٢٣٣، ٢٧٠، ٣٠٥، ٣٦٤.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٠٨. ناظر البيوت يتولى هذه الوظيفة عادة أحد أرباب الأقلام يشارك الأستادار في إدارة البيوت السلطانية كلها من المطابخ وغيرها. زين العابدين: معجم الألفاظ، ص٢٩٧.٥٢٢، ٣٠٠، ٣٥٩: ٣٦٠، ٣٩٠: ٣٩١.

(٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٩٧، ٣٠٠، ٣٥٩: ٣٦٠، ٣٩٠: ٣٩١.

(٦) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٥٥، ٣٧٠: ٣٧١، ونظر المارستات من الوظائف المهمة التي أسندت إلى أتابك العسكر كان يتولى الإشراف على البيمارستان المنصوري الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٨. حسان حلاق: المعجم الجامع، ص٢١٩. محمد عبدالله: المعجم العسكري، ص٣٤٥، رقم (١٦١٩).

(٧) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢١٥، ٣٣٦: ٣٣٧. ونقيب الجيش من الوظائف العسكرية الإشرافية بحضرة السلطان في القاهرة، ومهمة صاحبها الإشراف على عرض الجند وإحضار من يطلب منهم، كما يكلف بفض الخصومات التي تنشأ أحيانًا بين الجند، وحراسة السلطان في سفره، وإخراج الأمراء البطالين إلى أماكنهم، وهناك من يقوم بمهامه في نيابات بلاد الشام. عنها انظر حسان حلاق: المعجم الجامع، ص٢٢٣. محمد عبدالله: المعجم العسكري، ص٣٥٤، رقم (١٦٦٧).

(٨) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٣٧. ناظر الخزانة من المشرفين على خزائن السلاح ومهمته متابعة ما يجلب ويستعمل من أنواع الأسلحة التي تحمل للسلاح خاناة. عنها انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٢، حسان حلاق: المعجم الجامع، ص٢١٩، محمد عبدالله: المعجم العسكري، ص٣٤٦، رقم (١٦٢٢).

(٩) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٨٢. وكالة بيت المال مصطلح أطلق في العصر المملوكي للدلالة على وظيفة دينية موضوعها التحدث على مبيعات بيت المال ومشترياته من أراض ودور وغيرها والمعاقدة عليها، ولا يليها إلا أهل العلم والدين. عنها انظر حسان حلاق: المعجم الجامع، ص٢٣١.

المستوفي[١]، مشد العمارة[٢]، نظر المواريث[٣].

كما سلط الضوء على موظفي الدولة بالأقاليم المصرية في الوجهين البحري والقبلي ويأتي على رأس التنظيم الإداري بها ولاة الأقاليم، حيث أورد أسماء بعضهم[٤]، مع ذكر لبعض من مهامهم[٥]. واهتم بشكل كبير بولاة القاهرة والفسطاط ملقيًا الضوء على شيء من سيرهم[٦]، وما تعرض له بعضهم من المصادرة أو العقوبة[٧]، كما أشار إلى بعض الوظائف الأخرى بالأقاليم مثل كاشف الإقليم[٨].

وورد بالكتاب أيضًا وظائف أخرى جاء ذكرها أثناء ترجمته لبعض الشخصيات، والتي يصعب حصرها، ولكن خلاصة القول أن اليوسفي قدم في كتابه سجلاً إداريًا يُبيِّن الطريقة التي كانت تدار بها الدولة آنذاك.

ولم يتردد اليوسفي في الإشارة إلى أن السعاية كانت وسيلة ناجحة لتولي الوظائف في الدولة آنذاك، فتولاها الكثير ممن ليسوا أهلاً لها ولا شك أن ذلك قد ساهم في انتشار الفساد الإداري.

وفي الوقت نفسه أشار اليوسفي أكثر من مرة إلى حرص السلطان الناصر – أحيانًا– على اختيار من يصلح لتولي بعض الوظائف، من ذلك ما حدث في سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م، عندما توفي محتسب القاهرة، وسعى البعض للوصول إلى وظيفته، ولكن السلطان لم يقبل ذلك ورد قائلاً: "....هذا المنصب منصب كبير، لا يمكن أن يكون فيه إلا من يعرف الشرع والأحكام"[٩].

كما تناول اليوسفي معارضة أحد القضاة للسلطان، وذكر أن السلطان نزل على رأي القاضي[١٠]، مما يعني أنه أحيانًا يكون للحق صوت يعلو على صاحب السلطة والنفوذ، بل السلطان نفسه.

---

(١) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٨٠. والمستوفي مصطلح كان يطلق في العصر المملوكي على موظف من كتاب الأموال بالدواوين، مهمته ضبط الديوان التابع له، والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج الأموال ونحوه، وكان لكل ديوان ناظر وتحته مستوفي وتحته شاد. حسان حلاق: المعجم الجامع، ص٢٠٤.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٤٨. شاد العمائر السلطانية من أمراء العشرات، تولى الإشراف على العمائر السلطانية وتنفيذ رغبة السلطان فيما يتم إحداثه أو تجديده من المنازل والقصور. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٣. محمد عبدالله: المعجم العسكري، ص١٧٨، رقم (٧٧١).

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٥٧. ناظر المواريث مصطلح أطلق في العصر المملوكي للدلالة على من يتولى النظر على أملاك من يموت ممن لا وارث له، حسان حلاق: المعجم الجامع، ص٢٢٠.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٩٤، ١٩٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٩: ٢٦٠، ٢٦٥، ٢٧٥، ٢٨٨، ٢٩٩، ٣٤٤.

(٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٢٠: ١٢١، ٢٠٤: ٢٠٥، ٢١١، ٢٣١: ٢٣٢، ٢٧٠١: ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٠٠، ٣٧٧: ٣٧٨.

(٦) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٩٦، ٢٣١: ٢٣٢.

(٧) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٧٠: ٢٧١.

(٨) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٥٤: ٢٥٥.

(٩) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٥٩.

(١٠) نزهة الناظر، ص١٣٣: ١٣٥.

ورغم حديث اليوسفي المطول عن الفساد الإداري آنذاك، إلا أنه بين الحين والآخر يشير إلى مواقف مخالفة لذلك، مشيدًا بها وبأصحابها من الولاة أو أصحاب الدواوين، مثال ذلك ما ذكره عن شاد الدواوين سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م الذي عمل على إصلاح ما أفسده سابقيه، كما قام بإبطال بعض العقوبات وطرد الأعوان الظلمة، وما كان من استجابة السلطان له في ذلك(١).

ويلحق بالإدارة العقوبات التي كانت توقع على موظفي الدولة المغضوب عليهم، قد أفاض اليوسفي الحديث في هذا المجال، وذكر أنواعًا عدة من العقوبات، والتي كانت تستخدم – غالبًا – لاستخلاص الأموال من الموظفين المعزولين، والتي تعددت وتنوعت طبقًا لما جاء عند اليوسفي(٢).

الجوانب الاقتصادية:

قدم اليوسفي لمحات عن الحالة الاقتصادية في الدولة المملوكية في عهد السلطان الناصر محمد، ولأن الاقتصاد في مصر يرتبط بشكل مباشر بالنيل، فقد حرص اليوسفي –غالبًا– على ذكر أمر زيادة النيل في نهاية كل سنة ومقدار ما وصل إليه من منسوب، من ذلك ما جاء في نهاية أحداث سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، حيث قال: "كان النيل فيها تسع عشر ذراع واثنين وعشرين إصبع"(٣).

ونادرًا ما كان يوضح ما إذا كانت هذه النسبة كافية لري الأراضي الزراعية آنذاك أم لا، كأن يقول: "وروي سائر الأقاليم"(٤)، وذلك دون توضيح لأثر ذلك على الزراعة أو الفلاحين، أو وفرة الغلال وقلتها، وما يترتب على ذلك من رخص أو غلاء للأسعار.

مثال ذلك ما جاء في أحداث سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م عندما زاد سعر الغلة "وبقيت الناس لا تجد الخبز إلا بمشقة عظيمة"(٥).

وربما يفرد لذلك عنوانًا منفصلاً، كما جاء في أحداث العام نفسه بعنوان "ذكر ما اتفق في هذه السنة من الغلاء بمصر"(٦)؛ حيث تحدث عن زيادة أسعار الغلة من خمسة عشر درهمًا للأردب إلى عشرين ثم إلى ثلاثين درهمًا(٧) وتوقفت أحوال الناس إذ كانت كل يوم في سعر جديد إلى أن وصلت إلى خمسين درهمًا للأردب(٨). كما أشار اليوسفي للإجراءات التي اتخذها السلطان والولاة

---

(١) نزهة الناظر، ص٣٤٥، ٣٦٨: ٣٦٩.

(٢) عنها انظر، نزهة الناظر، ص١٩١، ١٩٧: ١٩٨، ٢٧٤: ٢٧٥، ٢٨٥، ٢٩٤، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١١، ٣٤٤: ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٧٧: ٣٧٨.

(٣) نزهة الناظر، ص٢٢٩. وللمزيد انظر، ص٢٨٢، ٣٣٧، ٣٩٣.

(٤) نزهة الناظر، ص٢٨٢.

(٥) عن هذه الأزمة وما ترتب عليها انظر نزهة الناظر، ص٢٨٨: ٢٨٩.

(٦) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٩٤.

(٧) نزهة الناظر، ص٢٩٥.

(٨) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٩٥.

والمحتسب لمواجهة هذه الأزمة[١].

أما عن بلاد الشام فقد تحدث اليوسفي عن الأزمات الاقتصادية والغلاء الذي حل بها في أكثر من موضع، منها مثلاً ما جاء في أحداث سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م، حيث قال: "كانت سنة حصل للناس فيها الغلاء، ووصلت الغرارة[٢] بدمشق بمائة وسبعين درهم، وقل الواصل إلى طرابلس". وفي محاولة لحل الأزمة أرسل الوالي إلى مصر لإحضار الغلال واشترى من ماله الخاص ما يوسع به على الناس[٣].

وفيما يخص بلاد الحجاز أورد اليوسفي في أحداث سنة ٧٣٣هـ/ ١٢٣٢م ما حدث من رخاء ورخص للأسعار في بلاد الحجاز أثناء تواجد السلطان بها للحج، حيث قال: ".... ورخص الأسعار، وأنها ما وصل أردب الشعير في مكة بعشرين درهم ما دونها إلى عشرة دراهم..."[٤].

وعليه نجده لم يقتصر على ذكر حالة الغلال والأسعار بمصر فقط، بل امتد الحديث إلى الشام وكذلك الحجاز، كما تطرق للحديث عن الحالة الاقتصادية في بعض النواحي التي تم فتحها آنذاك، ووصف ما فيها من زروع وفواكه وعيون جارية وما إلى ذلك[٥].

وتناول اليوسفي في كتابة بعض الصناعات الرائجة آنذاك منها صناعة السفن في دار صناعة مصر[٦]، وصناعة الذهب[٧]، وكذلك صناعة الحديد، وقد ذكر أن مخزون الحديد آنذاك قوِّم بحوالي خمسين ألف درهم[٨]. فضلاً عن صناعة الحرير، وقد ذكر أنه كان على صلة بأحد العاملين بها، وأشار إلى مدى الظلم الواقع عليهم من الدولة[٩].

أما عن التجارة فقد عرض لها اليوسفي في معرض حديثه عن ظلم ناظر الخاص، ومحاولاته المستمرة لجمع المال بأي شكل، وكانت أكثر الفئات تظلمًا من هذا – طبقًا لما ورد في النزهة– هم

---

(١) نزهة الناظر، ص٢٩٥: ٣٠١ للمزيد انظر، ص٣٤٣: ٣٤٦.

(٢) الغرارة: العدل من صوف أو شعر. وهي مكيال دمشقي مقداره ١٢ كيلاً و٧٢ مدًا وذكر أنها تساوي ٣ أردب مصرية تقريبًا وعلى هذا تساوي ٢٠٤.٥ كغم وحوالي ٢٦٥ لترًا بوصفها مكيالاً. فالترها هنتس: المكاييل والأوزان وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، القاهرة، ١٩٥٥، ص٦٤.

(٣) نزهة الناظر، ص٢٣٦: ٢٣٧.

(٤) ١٦٠: ١٦١.

(٥) عنه انظر حديثه عن إياس (من بلاد سيس) ومكانتها الاقتصادية، ص٤٠٠: ٤٠٦. اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٩٢.

(٦) صناعة مصر: مكان لبناء السفن وهي ثلاث مصانع، صناعة الجزيرة في جزيرة الروضة، وصناعة مصر بساحل مصر القديمة وصناعة المقس. للمزيد انظر، محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص١٠٣، رقم (٥٦٠).

(٧) نزهة الناظر، ص٢٩٢.

(٨) نزهة الناظر، ص٣٧٢.

(٩) نزهة الناظر، ص٣٤٦: ٣٤٧.

التجار الذين عانوا كثيرًا من الطرح عليهم، إذ أنه كلما ضاق الحال بالنشو أو طُلب منه المال، كان يميل عليهم ظلمًا وتعسفًا؛ وذلك من خلال طرح السلع المخزونة – في مخازن السلطان– عليهم بالقوة بأضعاف ثمنها الأصلي، ولا فرق في ذلك بين تجار مصر أو الشام(١). مع ذكره أسماء بعض تجار مصر آنذاك(٢)، وربما يصل الأمر معهم إلى نهب متاجرهم والاستيلاء على أموالهم دون وجه حق(٣). ومن يتظلم من ذلك تكون عقوبته الهلاك، ومن يحاول التدخل لصالح أحد التجار لا يسلم من الأذى(٤).

أما عن التجارة الخارجية فلم يتحدث اليوسفي بشكل مباشر عنها أو عن القائمين عليها، ولكنه يورد بين أسطر كتابه مدى اهتمام السلطان بالتجارة الخارجية، حرصًا منه على أن تكون سمعته طيبة بين الدول الأخرى، ويظهر ذلك من اهتمامه بأمن هؤلاء التجار وسلامتهم، معتبرًا أن التعرض لهم يضر بالاقتصاد ويسيء إلى سمعته هو شخصيًا عند الفرنج وملوك البحر(٥).

ويتضح للقارئ اهتمام السلطان بذلك من مكانة التاجر المعروف بالسلامي، والذي قام بدور كبير في إتمام المصالحة بين الناصر محمد ومغول فارس، وقد نجح في ذلك بالفعل حتى جعله السلطان سفيرًا له هناك، وقد تمتع السلامي بمكانة كبيرة لدى الطرفين(٦). ونظرًا للنشاط التجاري الرائج آنذاك؛ جمع هؤلاء التجار ثروات طائلة، واقتنوا الجواهر الثمينة، مما كان يعرضهم أحيانًا للخطر(٧)، وعليه يمكن القول من خلال ما ورد عند اليوسفي أنه رغم الأزمات الاقتصادية والظلم والاضطهاد الذي تعرض له البعض؛ إلا أن الاقتصاد – بشكل عام– آنذاك كان في حالة جيدة، وأنه كان قادرًا على الصمود نتيجة لقوة الدولة.

الجوانب الاجتماعية:

عرض اليوسفي في كتابه لكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية السائدة آنذاك، منها الاحتفال بالنصر فنجده يشير في أحداث سنة٨٣٨هـ/ ١٣٣٧م إلى الاحتفال بانتصار وعودة العسكر من بلاد سيس، إذ قال: "... وحصل السرور والفرح والتهاني ودقت طبلخاناة الأمراء والكوسات ثلاثة أيام، وأخلع على ساير الأمراء والمقدمين"(٨)، ومنه أيضًا احتفاء نائب الشام بالعسكر المصري أثناء

(١) نزهة الناظر، ص١٧٥: ١٧٦، للمزيد انظر، ص١٨٦، ٢٨٤: ٢٨٥، ٣٥٠: ٣٥٣، ٣٥٨: ٣٥٩.

(٢) نزهة الناظر، ص٣٥٠: ٣٥١.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٥٧: ٣٥٨، وعنه انظر أيضًا انظر، ص١: ١٨.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص ص٢٨٥، ٣٥١: ٣٥٣.

(٥) نزهة الناظر، ص٢٣٧: ٢٣٨، ٣٣٨.

(٦) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٠١.

(٧) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٩٨.

(٨) نزهة الناظر، ص٤١٩.

مرورهم بأرض الشام ذهابًا وإياباً باتجاه سيس[١]، كما أشار أيضًا إلى طريقة احتفال العامة بمثل هذه الانتصارات[٢].

ومن هذا أيضًا ما ورد عن الاحتفال بتأمير أحد أبناء السلطان في أحداث سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م وما كان من هيئة الأمير وملبسه وركوبه ومصاحبة الأمراء له[٣]، وما أقيم من زينة أو ما شابه ذلك[٤].

ويتصل بهذا أيضًا احتفاء السلطان باستقبال بعض رجال الدولة، وما كان ينعم به عليهم، من ذلك طريقة استقباله لنائب الشام سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م، والتي عرضها بشكل تفصيلي يجعل القارئ وكأنه يرى المشهد، والذي يختمه بقوله: "... ورأت الأمراء ذلك اليوم من السلطان ما عظم به نايب الشام ما لا رآه أحد منهم...."[٥].

ومن العادات الاجتماعية التي كانت ولازالت منتشرة في المجتمع المصري هي تقديم الهدايا أو بعض الأموال في المناسبات الاجتماعية المختلفة، كالزواج مثلاً، ومن ذلك ما فعله السلطان عندما أمر بزواج ابنة الأمير تنكز من ابن الأمير بكتمر الساقي، وبالفعل سُيرت من الشام إلى مصر، وذكر اليوسفي أن السلطان كان يدخل إليهم ومعه نحو ألف دينار وأنه طلب طلب العروس بين يديه " وأعطاها الذهب"[٦].

كما أشار إلى بعض متنزهات السلطان بناحية الأهرام، وأنه أحيانًا كان يضم مجلسه هناك بعض الجواري، ممن يعرفن بالغناء وصنعة العود[٧].

كما سلط صاحب النزهة الضوء على عادات بعض الأمراء أو رجال الدولة في الاحتفالات المختلفة، كالاحتفال بعيد الفطر، إذ قال في ترجمته لأحد الأمراء، "وكان إذا حضر العيد يصنع الطعام ويدخل من يأكل فإن اكتفوا يدخل بأطباق كبار، ويصنعوا أربع زبادي وصحن حلاوة في كل طبق، وأول ما يفرق على جيرانه، لم يدع أحد في ذلك المكان حتى يسير إليه، ثم على جنده، ثم على مماليكه ثم الغلمان بأسمائهم، ومهما فضل يتصدق به..."[٨].

ويتصل بذلك مجالس الطرب والغناء لدى بعض الأمراء، وقد أشار اليوسفي إلى اهتمام البعض

---

(١) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢٣٧: ٢٣٨، ٣٩٤: ٣٩٥، ٤١٢: ٤١٣.

(٢) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢٣٧: ٢٤٨.

(٣) نزهة الناظر، ص٢٣٦.

(٤) نزهة الناظر، ص٢٩٠.

(٥) انظر نزهة الناظر، ص٢٦٣: ٢٦٤، للمزيد انظر ص١٩٩، ٢٠٧، ٣٤١، ٣٥٦، ٣٦٠.

(٦) نزهة الناظر، ص١٥٢.

(٧) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٧٧: ١٧٨، وعنه أيضًا انظر، ص٢١٢.

(٨) نزهة الناظر، ص٣٢٧، وعنه أيضًا انظر، ص٣٨٦: ٣٨٨، ٤١: ٤١٥.

بها، والحرص على إحضار أهل الغناء والطرب، وربما وصل الأمر إلى إعداد خيمة خاصة بذلك من العام للعام[١]، ولم يفته الإشارة إلى بعض المناطق التي كانت متنزهًا للعامة[٢].

كما أشار صاحب نزهة الناظر إلى عادات منتشرة بين العامة آنذاك كعادات تُتبع في المآتم والعزاء، مع لفته للنظر إلى وجود اختلاف في الطرق المتبعة فيما بين ساكني المدن والأعراب بالصحراء[٣].ويتصل بذلك أيضًا طريقة العامة في الاحتفاء بأحد الأشخاص المفرج عنهم، من حمل الهدايا إليه، وكذلك حضور المغنيات إلى بيته[٤].

ومن الأمور التي اهتم بها اليوسفي كثيرًا هي إظهار مشاعر العامة من الناس تجاه الأحداث المختلفة سواء كانت سياسية أو إدارية أو اقتصادية كقوله "وفرحت الناس به"[٥] و"الناس تقول أن السلطان له غرض في ..."[٦]. و"كانت الناس تتحدث عن"[٧] و"خشي الناس"[٨] و"المتفق عليه من الناس أنه..."[٩] و"بقيت الناس في ألم عظم من هذا"[١٠].

ومما ظهر في كتاب النزهة أيضًا المستوى المادي المترف الذي كان ينعم به الكثير من رجال الدولة وأمرائها. وهو الأمر الذي ظهرت آثاره في اتجاهين معاكسين، أولهما أعمال الخير والبر التي قدمها بعض هؤلاء، والتي تحدث عنها اليوسفي في أكثر من موضع[١١]، وفي المقابل نجد انتشار اللهو[١٢] وشيوع الفواحش، وهو ما ألمح إليه اليوسفي في مواضع عدة من كتابه، مشيرًا إلى انتشارها بين البعض آنذاك حتى نساء الأمراء[١٣]. واتضح المستوى المادي المترف أيضًا وبشكل جلي في المصادرات التي كانت تحدث لبعض رجال وموظفي الدولة، والتي أفاض اليوسفي في

---

(١) نزهة الناظر، ص٢١٣٣: ٢١٤. وعنه أيضًا انظر ١٧٨.

(٢) نزهة الناظر، ص٢١١.

(٣) اليوسفي، ص١٥٥: ١٥٦، ٢٨١.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٥٢.

(٥) نزهة الناظر، ص٢٥٢، وعنه أيضًا انظر ٢٥٨.

(٦) نزهة الناظر، ص٢٦٥.

(٧) نزهة الناظر، ص٢٧٣.

(٨) نزهة الناظر، ص٢٧٥.

(٩) نزهة الناظر، ص٢٧٧، وكذلك، ص٢٨٠.

(١٠) نزهة الناظر، ص ٣٤٧، وعنه أيضًا انظر، ص٢١١، ٢٤٦، ٢٦١، ٢٦٢، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٧١، ٣٧٤.

(١١) نزهة الناظر، ص٢١٣: ٤١٢.

(١٢) نزهة الناظر، ص٢٦٧، ٢٧٥: ٢٧٦، ٣٨٤: ٣٨٥.

(١٣) نزهة الناظر، ص٢٧٣: ٢٧٤.

الحديث عن الكثير منها[١].

كما أشار اليوسفي إلى انتشار بعض العادات السيئة منها شرب الخمر ومعاشرة الغلمان وغيرها، وتحقيق الولاة في الأمر وثبوت التهم على البعض[٢]، ومنهم من كان من رجال الدولة أو أبناء القضاة[٣]. كما أوضح موقف السلطان تجاه من يثبت عليه هذا، وذلك بالنفي إلى صفد [٤] أو غزة[٥].

وتناول اليوسفي في كتابه بعض الجرائم، حيث ذكر اللصوص سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م الذين يهجمون على البيوت، وقد عبر عنهم بـ "المنسر" والذين لم يسلم منهم حتى القاضي نفسه[٦]. ويفهم منه أنه إذا كان بيت القاضي نفسه قد تعرض للسرقة فما بالنا بصغار الموظفين، أو حتى العامة الذين لا حول لهم ولا قوة.

ومن الأمور التي أشار إليها – أيضًا– اليوسفي شيوع ظاهرة التنجيم في المجتمع آنذاك، وذلك رغم تصريحه بكره السلطان لهذه الحرفة وأصحابها[٧]؛ إلا إن بعض رجال الدولة وأمرائها كانوا يعتقدون في المنجمين ويقربونهم[٨]، وقد التقى اليوسفي بأحد هؤلاء المنجمين وسأله عن بعض الأمور، وشهد له اليوسفي بصحة حساباته[٩].

أما عن اليهود والنصارى ووضعهم في المجتمع المصري آنذاك، والذين وصلوا إلى وظائف مهمة، فقد عرض لهم اليوسفي أكثر من مرة، وتحدث باستفاضة عن توليهم المناصب، رغم عدم صحة ذلك مستدلاً بما ورد في الكتاب والسنة النبوية، وكذلك أقوال الحكماء[١٠]. وكان ذلك اعتراضًا منه على تولية النشو لمنصب ناظر الخاص، ومنه يظهر موقفه تجاه هؤلاء ورأيه في توليهم بعض أمور المسلمين، كما أشار لطريقة تعامل بعض موظفي الدولة معهم مبيناً حرص البعض على وضعهم في مكانتهم المستحقة، وعدم تمكينهم أو السماح لهم بالارتفاع أو التعالي على المسلمين، والوقوف لهم بالمرصاد والتشدد معهم في ذلك، مستدلين في ذلك بما نص عليه الدين الحنيف[١١].

---

(١) نزهة الناظر، ص١٥٠: ١٥١، وعنه أيضًا انظر ص١٦٨: ١٦٩، ٢٤٤.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٦٩ وعنه أيضًا انظر، ص٢٣٠: ٢٣١، ٢٦٩: ٢٧١.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٣١، ٣٤٦، ٣٥٠.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٣١.

(٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٧١. وعنه أيضًا انظر، ص٣٥٠.

(٦) نزهة الناظر، ص٣٧٨.

(٧) نزهة الناظر: ص٢٤٦.

(٨) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٤٦.

(٩) نزهة الناظر: ص٣٩٢.

(١٠) نزهة الناظر: ص١٨٣: ١٨٤.

(١١) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٢٧: ٣٢٨.

وربما تطرق إلى إسلام أحدهم، ورد فعل العامة على ذلك(١).

ومما سبق يتضح لنا أن اليوسفي قدم صورة جلية لما كانت عليه الحياة الاجتماعية في مصر آنذاك لكل طبقات المجتمع.

العمارة:

أفاض اليوسفي في الحديث عن العمارة حتى أنه لا تكاد تخلو سنة من ذكر العديد من العمائر المنسوبة للسلطان أو إلى رجال الدولة، سواء كانت عمائر دينية أو اجتماعية أو عسكرية في مصر والشام.

ومن العمائر الدينية التي ذكرها المساجد، حيث أورد في كتابه الكثير منها، ويأتي على رأسها مسجد السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م، والذي أنفق عليه بسخاء وأشرف على عمارته بنفسه حتى "صار كل يوم يأتي إليه ويقف على عمارته.. وجاء من أحسن ما يكون" وبعد عمارته أوقف عليه أوقاف كثيرة وقراء ومؤذنين (٢).

كما نُسب إلى أمراء ورجال الدولة بناء العديد من المساجد ووقف الأوقاف عليها، وقد أشار اليوسفي إلى ذلك، وعلق على واحد من هذه المساجد بقوله "وفي الجملة أنه لم يعمر في مصر جامع أكثر زخرفة منه ولا أنور ولا أحسن عمارة من القبة والمئذنة، ولا ما أنفق عليه، واتخذ له الأوقاف الحسنة"(٣).

كما تطرق اليوسفي لعمارة السلطان الناصر محمد للحرم المكي في أحداث سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م وذكر أنه عين لذلك من يثق به وأنفق على العمارة، ورسم بتجهيز كل ما يحتاج إليه الحرم(٤). ليس هذا فحسب بل عرض أيضًا لعمارة مساجد بدمشق(٥). وذلك فضلاً عن منشآت دينية أخرى مثل الخوانك(٦) والزوايا وغيرها(٧). ومما أورد اليوسفي يتضح مدى اهتمام المماليك بالمنشآت الدينية

---

(١) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢٨٢: ٢٨٣.

(٢) نزهة الناظر، ص٢٤٠: ٢٤١.

(٣) نزهة الناظر، ص٢٦٥: ٢٦٦، وللمزيد انظر ص١٩١، ٢٤١، ٢٨٣، ٣١١، ٣٢٦، ٣٧٠، ٣٨٢، ٣٨٥، والجامع المشار إليه هو جامع المارداني نسبة إلى الأمير الطنبغا المارداني أحد أمراء السلطان الناصر. للمزيد انظر المقريزي: الخطط، ج٤، ص١٠٥.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٨٤.

(٥) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٨٩.

(٦) الخوانك جمع خانكاة وهي كلمة فارسية معناها بيت وقيل أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك، وحدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من الهجرة، وجعلت لتخلوا الصوفية فيها للعبادة. عنها انظر المقريزي: الخطط، ج٤، ص٢٧١: ٢٧٣.

(٧) للمزيد انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٨٨، ٢٦٦، ٢٧٧، ٢٨٣، ٣٨٧.

تقربًا إلى الله ورغبة في تخليد ذكرهم.

فضلاً عن ذلك تطرق اليوسفي إلى ذكر منشآت أخرى ذات طابع حربي كالقلاع[١] أو اجتماعي كالمارستان[٢] أو القناطر[٣]، هذا فضلاً عن منشآت أخرى عامة وخاصة سلط اليوسفي الضوء عليها وعلى أصحابها بشكل كبير، مظهرًا لجانب مشرق من تاريخ دولة المماليك آنذاك[٤].

الأوبئة والأمراض:

لم يشر اليوسفي إلى انتشار الأوبئة والأمراض إلا مرة واحدة، وذلك عند حديثه عن عودة العسكر المصري من فتح سيس سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م. مشيرًا إلى أنه وقت خروج العسكر منها أخبروا أن ذلك أوان الوباء فعجلوا بالخروج، وبالفعل بعد عودتهم بدأ المرضى بالظهور على الجند، وزاد الأمر بوفاة الكثير منهم وعقب بقوله: "... وتوفيت من الجند جماعة كثيرة..." وكذلك من الغلمان، كما توفي بعضًا من جند الشام وعلى رأسهم المهمندار[٥].

الأمور الغريبة:

اهتم اليوسفي – بشكل كبير – بالإشارة إلى الأمور الغريبة، حتى أنه أحيانًا يورد لها عنوانًا منفصلاً كأن يقول: "ذكر نكت غريبة اتفقت يتعين ذكرها في هذا المكان"[٦] أو "ذكر واقعة غريبة"[٧] وأحيانًا تكون ضمن باقي الأحداث دون وجود عنوان منفصل كأن يقدم لها بجملة "من غريب ما أورخه"[٨] وكذلك "واتفق له الأمور الغريبة"[٩].

وربما يتطرق لمثل ذلك في سياق ما يورد من ترجمات لبعض الشخصيات، من ذلك مثلاً ما ذكره في ترجمته لشخص يعرف بالمرشدي في أحداث سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م، فقال عنه: "... وكانت الناس تتحدث في أمر هذا الرجل أمورًا كثيرة من المكاشفة، وأن الرجل إذا قصد زيارته، وتمنى في طريقه أن يطعمه إذا حضر عنه شيء يشتهيه، فيحضره له إذا وصل عنده ويكاشفه"[١٠].

ويقع ضمن ذلك أيضًا الرؤى والأحلام التي تتحقق، وخاصة رؤية النبي(ﷺ) في المنام، وقد أشار

---

(١) عنها انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٦٨: ٢٦٩.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٨٧.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٦٤: ٢٦٥، وانظر أيضًا ص٣٢٥.

(٤) للمزيد عن منشآت عامة أو خاصة انظر ص١٦٣: ١٦٤، ٢٥٤، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٤٠، ٣٥٠.

(٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٦٦، ٤١٥: ٤١٧.

(٦) نزهة الناظر، ص١٥٢.

(٧) نزهة الناظر، ص١٧٠.

(٨) نزهة الناظر، ص٢٢١.

(٩) نزهة الناظر، ص٣٥١.

(١٠) نزهة الناظر، ص٣٨٦: ٣٨٨، وعنه أيضًا انظر، ص٣٩١، ٤٠٦.

اليوسفي إلى ذلك في أكثر من موضع، من ذلك ما أورده عن سبب حضور الأمير مهنا إلى السلطان الناصر معلنًا الطاعة بعد العصيان؛ ذاكرًا أن السبب هو رؤيته للنبي (ﷺ) في المنام، وهو يقول: "يا مهنا قد قرب موتك فلا تموت وأنت عاص...، فقلت: يا رسول الله وما عصياني؟ قال: عصيت أن تطأ بساط الملك الناصر..." ، وزاد بأنه ضامن له عند الناصر ألا يؤذيه(١). وبالفعل حضر إلى مصر آمنًا مطمئنًا وابتهج الناصر محمد بالأمر وأنعم على مهنا، وكأن ذلك كان تحقيقًا للرؤية الصادقة.

من خلال العرض السابق يتضح وبشكل جلي مدى اتساع وتنوع المادة العلمية الواردة في كتاب نزهة الناظر، والتي تدل على سعة إطلاع المؤرخ وإلمامه بما يدور حوله، وحرصه على إعطاء صورة شاملة للأحداث التي كتب عنها أو عاصرها؛ لذا يمكن القول أن الكتاب عبارة عن سجل كامل لكل أحداث عصره، وإن تفاوتت المعلومات الخاصة بكل جانب، لكن في الإجمال نجد اليوسفي يتطرق لكل منها، وعليه فإن كتاب نزهة الناظر يوضع ضمن كتب التاريخ التي تعرف بالتدوين التام، والتي يقصد بها تغطية العصر كله بالتواريخ المعاصرة(٢).

(١) نزهة الناظر، ص١٩٨: ٢٠٧, وعنه أيضًا انظر، ص٢١٧، ٢٢٣: ٢٢٤، ٤٠٧: ٤٠٩.

(٢) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص٨٨.

الفكر التاريخي في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي:

لاشك أن التاريخ هو التجربة المدونة للجنس البشري، والإنسان يستطيع أن يستفيد من هذه التجربة في أي ميدان من ميادين المعرفة(١)، وفي الوقت الذي كانت فيه الثقافة الإسلامية تنمو وتتضح؛ كان التاريخ جزءًا منها ينمو ويشتد عوده، فهو ابن تلك الحركة الثقافية الواسعة(٢). ويتفق الكتَّاب على أن التاريخ هو أكثر المجالات العلمية اهتمامًا من علماء المسلمين، حتى قيل بأن الكتاب المسلمين لم يؤلفوا في علم في العلوم كما ألفوا في التاريخ، وأنه "لم يشتغل بالتأليف في التاريخ كالمسلمين ذلك لأنهم اعتبروه من أحسن العلوم"(٣).

وتهيأت الأسباب التي أدت إلى ازدهار حركة الفكر التاريخي بالقاهرة، والتي تمثلت في هجرة العلماء من الشرق هربًا من الزحف المغولي، كما عمل المماليك على الإكثار من دور العلم المتمثلة في المدارس والمساجد، فضلاً عن الأوقاف عليها؛ وترتب على ذلك لهفة المؤلفين للتدوين التاريخي(٤) خاصة في العصر المملوكي، والذي يعتبر العصر الذهبي للتدوين التاريخي بامتياز، حتى اعتبرت المدرسة التاريخية في القاهرة هي صاحبة الصدارة، وما عداها من مدارس أخرى ما هي إلا مدارس ثانوية لاحقة لها(٥).

ومن المعروف أن هناك منهجية محددة للبحث العلمي في مجال الكتابات التاريخية(٦)؛ يجب على المؤرخ اتباعها حتى يكتمل تحقيق المنهج العلمي، والذي بفقده يفقد العمل كثيرًا من مزاياه، بل وعامة دعائمه، فلا يستطيع الكاتب أو القارئ تبيّن المعالم الصحيحة للعمل إذا لم يكن كاتبه متبعًا في إعداده المنهج العلمي السليم(٧)، ولكنه في الوقت نفسه ومع كثرة بل وتضخم المؤلفات وتنوع الموضوعات، وكذلك اختلاف طرائق الطارقين له؛ كان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على التدوين التاريخي مادةً ومنهجًا وأسلوبًا وهدفًا وتنظيمًا، وقد ذكر أنه يمكن مراقبة ما طرأ على مناهج التاريخ

---

(١) عبدالعليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص٢١٧.

(٢) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٨٦.

(٣) يسري عبدالغني: معجم المؤرخين المسلمين، ص٢٥، شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص١٥.

(٤) يسري عبدالغني: مؤرخون من عصر الموسوعات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ص٥٢، ٥٤، شيماء عبدالفتاح: ابن الجزري وكتابه حوادث الزمان، ص١٩٣.

(٥) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص٩٣، ٩٧.

(٦) يفرق الباحثون هنا بين مصطلحين متقاربين وهما الأسلوب العلمي ومنهج البحث العلمي، والأول يعني الإطار الفكري الذي يعمل بداخله عقل الباحث، والثاني يعني الخطوات التطبيقية لذلك الإطار الفكري. محمد ريان عمر: البحث العلمي مناهجه وتقنياته، ص٤٦.

(٧) محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص١٧٢.

الإسلامي من تطور من خلال أمرين وهما: تدوين المادة التاريخية وتنظيم هذه المادة"[١].

إذن هناك قواعد محددة لكن في الوقت نفسه يتفاوت المؤرخون في تطبيق هذه القواعد، تبعًا لطريقة وأسلوب كل منهم في عرض مادته العلمية، كما أنها تتفاوت من مؤرخ لآخر، ولما كانت هناك عوامل كثيرة متغيرة تدخل في الأحكام التاريخية؛ فليس المدهش هو اختلاف المؤرخين، وإنما هو اتفاقهم[٢]؛ وعليه يمكن القول بأن التراث التاريخي الإسلامي عبارة عن مناجم من المعلومات تنتظر من يدخلها ويضعها في مكانها من التحليل والتركيب[٣].

منهج اليوسفي:

يعد كتاب اليوسفي واحدًا من كتب التاريخ المهمة، المصنفة ضمن كتب السير، واعتبر البعض أن نبوغ العرب الحقيقي في علم التدوين التاريخي يتجلى في كتابة السير أكثر من تجليه في رواية الأخبار[٤]، وبعد دراسة كتاب اليوسفي يمكن القول بأنه من الكتب التاريخية التي تهتم بالتاريخ المحلي؛ إذ طغت النزعة المحلية عليه، فكانت مصر هي بؤرة الأحداث، لما لها من أهمية ومكانة سياسية آنذاك، إلى جانب ذكر بعض الحوادث القليلة الخاصة بالشام والحجاز والعراق واليمن وبعض الممالك الأخرى دون سرد أحداثها، مما يدل على ارتباط المؤرخ ببلده واعتزازه بها[٥].

وقد اتبع اليوسفي في مؤلفه الطريقة الحولية، أي ترتيب الأحداث التاريخية على السنوات[٦]– وهي الطريقة السائدة في معظم المؤلفات المملوكية[٧]– وذلك في تسجيله لسيرة الملك الناصر، مخالفًا بذلك بعض معاصريه من أصحاب سير السلاطين، أمثال ابن عبدالظاهر وكتابه الروض الزاهر، والذي جعل عناوينه تدور كلها حول السلطان وأفعاله وحروبه وغير ذلك مما يخص سيرته، أما اليوسفي فيبدو أنه اعتبر أن الطريقة الحولية أكثر فائدة وترتيبًا في سرد سيرته؛ حتى يتثنى له إعطاء صورة لكل الأحداث التي تدور حوله في كل نواحي الحياة، وكأنه أراد أن يجعل مؤلفه أكثر خصبًا؛ بأن يجعله سجلاً للأحداث.

وكان يستهل أحداث كل سنة بعنوان منفصل، وهو "ذكر دخول سنة كذا... وحوادثها"[٨]، ويبدأ

---

(١) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٣٢٦.

(٢) عبدالعليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص٢٧.

(٣) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص٢٣.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة تاريخ، مج٤، ص٥٠٣.

(٥) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص١٠٥، ٢٠٧.

(٦) صائب عبدالحميد: علم التاريخ ومناهج المؤرخين في علم التاريخ نشأة وتدينًا ونقدًا وفلسفة ومناهج كبار مؤرخي الإسلام، بيروت، ٢٠٠٨، ص١٧٨.

(٧) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٤٢٢، ج٣، ص٦٣.

(٨) نزهة الناظر، ص١١٣، ١٦٧، ٢٢٩، ٢٨٢، ٣٣٧.

أخبارها أحيانًا بذكر عودة الحاج المصري، أو وصول المبشرين بسلامة الحاج أو ما يتصل بذلك[١]، وفي الأغلب الأعم يبدأ أحداث السنة بأخبار مختلفة، دون الالتزام أو التقيد بخط أو منهج معين[٢]، كالاستهلال بسرد أسماء القائمين على أمر البلاد من السلطان والخليفة وباقي رجال الدولة ونوابها[٣].

أو ربما يبدأها بإصدار السلطان لأمر ما[٤]، أو القبض على أحد الأمراء[٥]، أو وصول خبر مهم من جهة ما[٦]، بادئًا تلك الأخبار بكلمة "وفيها..."[٧] ،وربما بتحديد الشهر كأن يقول "في المحرم...."[٨] ،أو "استهل المحرم...."[٩] وربما بعبارة "وفي هذه السنة..."[١٠].

أما عن باقي الأحداث التي تقع ضمن هذه السنة فكان يربط بينها بكلمة وفيها...."[١١] ،و"وفي تلك السنة...."[١٢] ،أو بعبارة "وفي تلك المدة ...."[١٣] ،أو "وفي تلك الأيام...."[١٤] ،وكذلك "واتفق في تلك المدة...."[١٥] ،وأحيانًا يحدد الشهر الذي وقع فيه الحدث؛ كأن يقول "وفي شهر كذا..."[١٦]، أو "وفي نفس الشهر" إذا كان قد سبق له ذكر الشهر[١٧]، وربما يزداد دقة بتحديد اليوم والشهر كما في

---

(١) نزهة الناظر، ص١١٣، ١٩٣.

(٢) نزهة الناظر، ص١٩٧، ٢٢٩، ٢٨٣، ٣٣٧.

(٣) مخالفًا بذلك ما وصفه شاكر مصطفى بـ "القاعدة العامة عند المؤرخين آنذاك، وهو أن يستهل المؤرخ أحداث السنة بذكر رجال الدولة من السلطان والخليفة إلى النواب في سائر الجهات، فضلاً عن القضاة للمذاهب الأربعة، وأحيانًا يذكر كبار الموظفين، وهذه القائمة ربما تتكرر كل عام، وربما يكتفي بقوله بأنهم "على ما كانوا عليه في السنة الخالية مع ضرب أمثلة كثيرة لذلك. عنه انظر، شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص٦٥: ٦٦. وربما بدأ البعض أحداثه بذكر منسوب النيل مثل الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص٢٨٧، ابن كثير: البداية، ج١٨، ص٣٠٩.

(٤) نزهة الناظر، ص٢٢٩، ٣٣٧.

(٥) نزهة الناظر، ص١٦٧.

(٦) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٨٢.

(٧) نزهة الناظر، ص١١٣، ١٦٧، ٢٢٩.

(٨) نزهة الناظر، ص٢٨٢.

(٩) نزهة الناظر، ص٣٩٣.

(١٠) نزهة الناظر، ص٣٣٧.

(١١) نزهة الناظر، ص١١٦، ١١٩، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩١، ٣٠٥، ٣٥٥، ٣٦٨.

(١٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٥٥.

(١٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٢٢، ١٧٦.

(١٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٢٣، ١٢٩، ١٣١، ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٩٠، ٣٠٤.

(١٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٨٥.

(١٦) نزهة الناظر، ص١٩٠، ٢٣٢.

(١٧) نزهة الناظر، ص١١٩.

قوله "وفي يوم الخميس ثاني شعبان"[١].

أو يقول "في أواخر شهر كذا..."[٢] أو "مستهل شهر كذا"[٣] ونادرًا ما يقوم بتحديد الوقت كأن يقول: "باكر النهار"[٤].

وتتعدد الأحداث في كتاب النزهة في السنة الواحدة؛ ففي أحداث سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م يذكر حوالي ثمانية عناوين جانبية لأحداث مختلفة[٥]. وتجدر الإشارة إلى أن تفاصيل هذه الأحداث كانت متفاوتة، ولاشك أن المؤلف هو الذي يقرر مدى التطويل والتقصير في ذلك.

ومن الأخبار التي حرص اليوسفي على تسجيلها سنة بعد أخرى هي منسوب النيل، ففي نهاية كل سنة يورد عنوانًا منفصلاً يخص ذلك كأن يقول: "ذكر النيل في هذه السنة[٦] أو "ذكر النيل"[٧] أو "وفاء النيل في هذه السنة"[٨]، وكان هذا العنوان غالبًا هو آخر ما يذكر في أحداث السنة، وربما – وهو قليل– يذكر بعدها عنوانًا آخر أو خبر يذّيل به على بعض الأخبار السالفة الذكر في أحداثه[٩].

وذكر النيل ومنسوب زيادته أمر حرص عليه الكثير من المؤرخين آنذاك، نظرًا لارتباط الاقتصاد به، وبالنظر فيما كتبه اليوسفي في هذا الشأن يمكن ملاحظة أمرين وهما:

أولاً: أنه كان يذكر منسوب النيل مقتصرًا على مقدار ارتفاع الماء فقط، دون شرح أو تفصيل لما يترتب على ذلك كما سبقت الإشارة عند الحديث عن الجوانب الاقتصادية في الكتاب.

ثانياً: غالبًا ما يوجد عنده اختلاف مع كتابات من عرضوا لذلك فيما يذكره من أرقام لمنسوب النيل، ففي سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م مثلاً يذكر أن الزيادة كانت "تسع عشر ذراع واثنين وعشرين إصبع"[١٠] وإذا قارنا ذلك بما ورد عند بعض الكتاب سنجد اختلافًا بينا[١١].

---

(١) نزهة الناظر، ص١٩٤، وعنه أيضًا انظر، ص٢٣٦، ٣٤٩.

(٢) نزهة الناظر، ص٣٠٠، ٣٠١.

(٣) نزهة الناظر، ص٣٠٠.

(٤) نزهة الناظر، ص٤١٠: ٤١١.

(٥) عنه انظر نزهة الناظر، ص١٢٥، ١٤٠، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٧، ١٨٣، ١٩٠، ١٩١، ١٩٨.

(٦) نزهة الناظر، ص١٥٩.

(٧) نزهة الناظر، ص٢٢٩، ٣٩٣.

(٨) نزهة الناظر، ص٢٨٢، ٣٣٧.

(٩) نزهة الناظر، ص١٥٩، ١٦١.

(١٠) نزهة الناظر، ص٢٢٩.

(١١) يذكر ابن أيبك الدواداري أنها كانت "ستة عشر ذراعًا وعشرين إصبعًا" كنز الدرر، ج٩، ص٣٧٣. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٨٠، ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٢٢٤.

أسلوبه في عرض الوفيات:

كان اليوسفي حريصًا على تذييل حولياته بتراجم، من خلال ذكره بعض الوفيات الكائنة في تلك السنة[١]، وذلك تحت عنوان "ذكر المتوفين فيها"[٢] أو "ذكر المتوفين في هذه السنة"[٣] أو "ذكر من توفي فيها"[٤] وربما يعقبه بعنوان آخر لذكر وفيات دمشق كأن يقول: "ذكر من توفي بدمشق"[٥] وتحت هذه العناوين يورد وفياته، والتي تتفاوت فيما بينها من حيث التفصيل أو الاختصار، وسوف يأتي تفصيل ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المنهج قد ظهر عندما دمج المؤرخون منذ أواخر القرن السادس الهجري تاريخ الرجال مع الأحداث في كتاب واحد، إذ التقى ذرعا التاريخ الداخليان وهما الأحداث والتراجم، وإذا كان ذلك قد استجد، بل واعتبر بدعة في القرن السادس الهجري، فإنه استقر واعتبر سنة أساسية في التدوين التاريخي في العصر المملوكي، بل ضرورة منهجية، خاصة مع التاريخ الحولي، ويعتبر التاريخ عندهم ناقصًا بدونها، وتلك التراجم تطول وتقصر ويحدد مجالها تبعًا لهوى المؤرخ نفسه[٦].

وقد اتبع اليوسفي هذا المنهج بأسلوب مميز؛ إذ احتوى كتاب النزهة على تراجم للعديد من الشخصيات المؤثرة في سير الأحداث آنذاك، وبالإطلاع على ما جاء عند اليوسفي في التراجم يمكن ملاحظة الآتي:

- أن تراجمه تتنوع ما بين سلاطين وقادة وعسكريين، وموظفي إدارة، وعلماء في مجالات مختلفة سواء علوم نقلية أو عقلية.
- تفاوت حجم التراجم في نزهة الناظر، فربما تطول وتستغرق عدة صفحات، قد تصل أحيانًا إلى عشر صفحات أو أكثر[٧]، وربما تقصر الترجمات عنده حتى إنه لا يتعد البعض منها عدة أسطر. وتجدر الإشارة هنا أن الأمر لا يتعلق بمكانة المترجم له؛ لأن هناك شخصيات تولت مناصب كبرى، ومع ذلك اقتصرت تراجمهم على أسطر قليلة[٨].

ويمكن القول أن الإسهاب في بعض الترجمات ربما كان راجعًا إلى صلته الوثيقة بأصحابها

---

(١) كانت هذه الطريقة هي المتبعة عند أغلب مؤرخي العصر وقلما من حاد عنها.

(٢) نزهة الناظر، ص١٣٣، ٣٨٤.

(٣) نزهة الناظر، ص٢١١، ٣٢٢.

(٤) نزهة الناظر، ص٢٧٢.

(٥) نزهة الناظر، ص٢١٦.

(٦) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٤١١: ٤١٢، ٤٥٥، ج٣، ص٦٧.

(٧) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٣٥: ١٤٧، ٢١٦: ٢٢٩، ٣٢٩: ٣٣٤.

(٨) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢١٣، ٢١٥: ٢١٦، ٢٧٧، ٣٣٦: ٣٣٧.

ومعرفته الكثير عنها، أما التراجم التي اختصرها فلعله لا يعرف الكثير عن أصحابها، وربما لعدم رغبته في الحديث عنها، مثل شخصية نقيب الجيش الذي اقتصر في ترجمته(١)، ويتضح عدم رغبته في الحديث عنه أنه لم يختم ترجمته بأي من عبارات الترحم عليه، وهي من الحالات القليلة جدًا التي لم يترحم عليها.

- ثراء المعلومات التي يقدمها عن المترجم لهم – في أغلب الأحيان– مما يعطي صورة متكاملة عن الشخص موضوع الترجمة، من التعريف به والوظائف التي تولاها، وكيفية مباشرته لعمله، ورأيه الشخصي فيه، وربما جانبًا من رأي عامة الناس فيه، ووفاته وأسبابها ثم ثروته. وبالمجمل يعطي معلومات مفصلة تدل على إطلاعه على أحوال المترجم لهم، وتؤكد قربه أو صلته بالكثير منهم، وهذا ما أكده أكثر من مرة، ولم يكتف بذلك بل كان يتتبع أخبارهم من خدمهم أو حجابهم أو مماليكهم المقربين منهم، فضلاً عن إشارته إلى حضوره وفاة البعض منهم، وربما الاشتراك في كتابة وصية أحدهم(٢)؛ مما يجعل تراجمه تختلف عما ورد عند بعض معاصريه من حيث الدقة والشمولية.
- اتباعه مبدأ الحياد – أحيانًا كثيرة– أثناء سرد الترجمات حتى مع الشخصيات التي تجمعه بهم صلة أو صداقة، فعندما يذكر صفات الرجل يعمد إلى ذكر ما له وما عليه، وربما رأى الناس فيه من مدح أو ذم(٣). ولا أدل على ذلك مما ذكره عند ترجمته لصديقه ابن سيد الناس اليعمري، حيث ذكر بدايته وما كان عليه من اللهو والشراب، ثم إقلاعه عن ذلك وتوبته إلى الله، كما نقل عنه رؤيته للنبي(ﷺ) في المنام أكثر من مرة(٤). وإذا حدث ومدح أحد تراجمه ممن تربطه بهم صلة نجده يقدم لذلك بقوله: "ونقول من غير تعصب لصحبته..."(٥).
- حرصه على أن يُقرن اسم المترجم له بالألقاب المنوط بها أو المسمى الوظيفي الخاص بصاحب الترجمة، كأن يسبقها بـ "الشيخ"(٦) أو "القاضي"(٧) أو"الصاحب"(٨) أو"الأمير"(٩) أو

(١) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢١٥. فاليوسفي أحد رجال الجيش، ولاشك أنه يعرف عن نقيبه الكثير، ومع ذلك لم يتعرض له بشكل مفصل ربما كان ذلك كرهًا منه لهذا الرجل.

(٢) عنه انظر نزهة الناظر، ص٣٢٢: ٣٣١، ٣٨٦، ٣٨٩.

(٣) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢١٣: ٢١٥، ٢٧٤: ٢٧٥، ٢٧٧.

(٤) نزهة الناظر، ص٢١٦: ٢٢٩.

(٥) نزهة الناظر، ص٣٣٤.

(٦) نزهة الناظر، ص٢١٦، ٣٨٦، ٣٨٩.

(٧) نزهة الناظر، صص١٣٣، ٣٩٠، ٣٩١.

(٨) نزهة الناظر، ص٢٧٧.

(٩) نزهة الناظر، ص٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢٧٩، ٣٢٢، ٣٨٤، ٣٨٥.

"الملك"[١] أو "نقيب الجيش"[٢] أو "نائب كذا"[٣] أو "شيخ الحديث بكذا"[٤] أو "خطيب جامع كذا"[٥].

- لم يضبط اليوسفي تاريخ الوفاة وكان أقصى ما يذكره هو الشهر أو حتى في "العشر كذا"، من الشهر[٦].
- لم يلتزم بوضع كل التراجم تحت العنوان المخصص لها، إذ ربما تأتي تراجم وسط الأخبار أو الأحداث، ثم يأتي في مكان آخر ويورد عنوانًا مخصصًا للوفيات.
- تفاوت التراجم الواردة في كتابه، وإذ ربما تكثر في إحداها وتقل في أخرى، حتى تصل في إحدى السنوات إلى أربع ترجمات فقط، كما في وفيات سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م[٧].
- لم يلتزم بذكر التراجم في كل السنوات فأحيانًا كان يسقط التراجم في بعض السنوات، من ذلك ما جاء في سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م والتي لم يورد فيها تراجم.

الجانب الديني عند اليوسفي:

يقوم منهج كتابة التاريخ الإسلامي في جانبه الفكري والتصوري على المبادئ والقيم الإسلامية، ويستمد من التصور الصحيح لقضايا العقيدة والإيمان، ولذا فإن غايته ووجهته مرتبطة بغاية العقيدة الإسلامية، وعليه فيجب على المؤرخ أن يربط عمله التاريخي بعقيدته ومنهجه[٨]. وقد وجد المؤرخون المسلمون في التراث الإسلامي من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية معيناً لا ينضب من التوجيهات والحكم للدخول في ثنايا المواقف التاريخية[٩]، وهو ما أطلق عليه البعض اسم "منهج الاستدلال الشرعي"[١٠].

بالفعل كان لهذا المنهج أثره عند اليوسفي فيما وصل إلينا من كتاباته، إذ لا يخفى الجانب الديني

---

(١) نزهة الناظر، ص٣٣٤.

(٢) نزهة الناظر، ص٢١٥، ٣٣٦.

(٣) نزهة الناظر، ص٢١٦، ٣٢٩.

(٤) نزهة الناظر، ص١٦٥، ٢١٦.

(٥) نزهة الناظر، ص٣٩١.

(٦) نزهة الناظر، ص١٣٣، ٢٧٩.

(٧) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٣٣: ١٣٥.

(٨) ذكر أحد الكتاب المحدثين "أن الارتباط بالعقيدة الإسلامية في تصوراتها وأحكامها هو الغاية الأولى في منهج كتابة التاريخ عند المسلمين". محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص١٦٥.

(٩) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٣٣٠.

(١٠) محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص١١٦.

عنده، وذلك رغم كونه لا ينتمي لطبقة العلماء أو رجال الدين[١]، ومع ذلك فقد التزم بهذا الجانب إلى حد كبير، ويتضح ذلك فيما ورد في كتابه من آيات قرآنية وأحاديث نبوية استشهد بها فى مواضع مختلفة[٢].

من ذلك ما ذكره اليوسفي حين تحدث عن تولى النشو نظر الخاص، ووضع مقدمة لذلك، موضحًا رأي الشريعة الإسلامية في تولي أهل الكتاب لأمر المسلمين، مؤكدًا على ضرورة الاعتبار بالقرآن الكريم والسنة النبوية، حيث قال: "ينبغي للعاقل أن يعتبر بالقرآن الكريم كلام الله فإنه معجز، ثم بكلام النبي(ﷺ) وتابعيه، ثم كلام الحكماء والمجربين"[٣] واستدل على ذلك بقول الله تعالى: **(لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء)**[٤] وبالنسبة للاستدلال من الحديث النبوي فقد استدل بقول النبي(ﷺ): "اليهود والنصارى خونة لعن الله من ألبسهم ثوب عز، لعن الله من ألبسهم ثوب عز"[٥].

ويفهم من أدلته هذه أنه كان رافضًا لتولي النشو أمر المسلمين، وإن كان لم يصرح بذلك، بل ساق فقط الأدلة وترك الفهم إلى القارئ، خاصة وأنه أعقب ذلك بالحديث عن وصول النشو إلى قلب السلطان وتوليه نظر الخاص.

ويلحق بذلك أيضًا ما استشهد به على صحة رؤيا أحد الأشخاص المترجم لهم والذي ذكر رؤيته للنبي(ﷺ) في المنام، وأنه طلب منه فعل بعض الأشياء وأعلمه بقرب أجله[٦] وقد استشهد على ذلك بقول النبي(ﷺ): "الشيطان لا يتمثل بي، ومن رآني فقد رآني حقًا"[٧]. هذا فضلاً عما أورده في كتاباته ورسائله الرسمية من استشهادات[٨]، أضف إلى ذلك كله أنه ختم كتابه بالصلاة والسلام على النبي والحوقلة، حيث قال: "وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[٩].

---

(١) من الممكن أن نعتبر أن ثقافته الدينية هذه قد استمدها من والده المعروف بالشيخ يحيى، حتى أن اليوسفي يعرف عند البعض بـ "ابن الشيخ يحيى" وإن لم يتوفر لدينا معلومات عن والده؛ لكنه من الاسم يتضح بأنه كان من رجال الدين.

(٢) عنها انظر نزهة الناظر، ص١٨٣، ٢١٤، ٢٨١، ٤١٧، ٤١٩.

(٣) نزهة الناظر، ص١٨٣، وقد أشار شاكر مصطفى في كتابه إلى ذلك قائلاً إنه الجانب الأهم، والذي يظهر فيه أثر الفكر الفلسفي في التاريخ الإسلامي، ووضع لذلك عنوان الحكمة والموعظة، وأطلق على المؤرخين الذين يعتمدون في كتاباتهم على الآيات والأحاديث والمواعظ (اسم المؤرخون الأخلاقيون). التاريخ العربي، ج١، ص٣٣٠.

(٤) نزهة الناظر، ص١٨٣، سورة المائدة: آية (٥١) وأخطأ المحقق في تحديد رقم الآية إذ ذكر أنها رقم (٥).

(٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٨٣.

(٦) نزهة الناظر، ص٢١٨. للمزيد انظر ص٢١٤.

(٧) البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه، المشهور بـ "صحيح البخاري، بدون، ج٢، كتاب التعبير، باب "من رأى النبي في المنام" حديث رقم (٦٥٩٣).

(٨) نزهة الناظر، ص٤١٧: ٤١٩.

(٩) نزهة الناظر، ص٤١٩.

كما ظهرت النزعة الدينية عند اليوسفي واضحة في الكثير من المواقف التي أكد فيها على قدرة الله وإرادته في تسيير تلك الأحداث[١]. من ذلك مثلاً ما ذكره عندما هاجمت مراكب الفرنج طرابلس وما قام به النائب من شحن الجند والذخيرة في المراكب ومطاردة الفرنج إذ يقول: "... وركبوا المراكب وسهل الله لهم الريح إلى إن التحقوا بتلك المراكب وهبت الريح على مراكب العدو وأوقفتها وسط البحر... وقاتلوا ونصر الله المسلمين عليهم"[٢].

ومنه أيضًا ما ذكره عن الغارة على سيس سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م حيث قال: "وحصل في ذلك اليوم بتقدير الباري عز وجل وما سبق في علمه أن الغارة كانت في ذلك الشهر في سيس غارة عظيمة"[٣].

وفي الأزمة الاقتصادية والغلاء الذي حل بمصر سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م ثم وصول الغلال من الشام قال اليوسفي: "ولطف الله تعالى بالناس بعد ما عشمت نفوسهم في أمر الغلاء..."[٤] وهكذا يجعل اليوسفي إرادة الله تعالى ومشيئته هي المحرك الأكبر للأحداث.

كما كان اليوسفي ينسب العلم إلى الله تعالى فيما خفي عليه من أمور، من ذلك ما أورده في سياق الحديث عن وفاة الأمير بكتمر الساقي، مؤكدًا على وجود اتفاق بين السلطان وأحد الأمراء للتخلص من بكتمر والاستيلاء على أمواله وحريمه، ورغم تأكيده على خبر ذلك الاتفاق بالأدلة، إذ به يعقب عليه برد العلم في الأمر إلى الله تعالى: "وعلمهم في ذلك عند الله تعالى"[٥] وقد تردد ذلك كثيرًا عنده مثل قوله: "وكأنه كان والعلم لله تعالى..."[٦] وكذلك" "وعلم ذلك عند الله تعالى"[٧] وعليه نجد أمر رد العلم في الأمور إلى الله تعالى كان واضحًا في خطه المنهجي، وفي تفسيره للأحداث.

واتضح كذلك عند اليوسفي مدى إيمانه بالقضاء والقدر، والذي اعتبره البعض أحد عناصر التقويم والحكم على الحادثة التاريخية[٨]، وهو ما اعتمده اليوسفي معتبرًا قضاء الله وقدره هو المتحكم الأول في الأحداث. من ذلك ما ذكره اليوسفي عند حديثه عن وفاة الأمير بكتمر وابنه وبحثه في سبب

---

(١) وهو ما أشار إليه البعض بمنهج "التسليم الديني" ويقصد به التسليم لله تعالى في كل الأمور والأحوال، حتى أنه تحدث عن التاريخ باعتباره تعبيرًا واقعيًا عن إرادة الله. للمزيد انظر شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٦١، ج٣، ص٨٣، محمد بن صامل: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص١٨٦.

(٢) نزهة الناظر، ص٣٣٧: ٣٣٨.

(٣) نزهة الناظر، ص٤٠٨.

(٤) نزهة الناظر، ص٢٩٧: ٣٠١.

(٥) نزهة الناظر، ص١٥٩.

(٦) نزهة الناظر، ص٣٢٥.

(٧) نزهة الناظر، ص٣٣٦.

(٨) محمد بن صامل: منهج كتابة التاريخ، ص١٨٢: ١٨٣.

ذلك؛ فنجده قبل أن يبدأ في شرح الحادثة إذ به يقول: "وكان له أسباب تناسب صحة ما نقلوه لنا ممن اطلع على حقيقة أمره، والسبب لذلك مع تقارب الأجل وإمضاء المقدور"(١). وبعد شرحه للحادثة والتأكيد على قتله وابنه بتدبير السلطان يقول: "واتفق مع إرادة الله تعالى..."(٢).

ومنه ما ذكره عند الحديث عن وصول النشو إلى خدمة السلطان وعنه يقول: "ولاح له فيه فراسة يختارها كما قدر الله تعالى"(٣) ويتصل بذلك ما ذكره عن اجتماع سري بين السلطان والنشو بشأن أحد الأمراء المحبوسين للتخلص منه، قال: "وأسر له أمر يفعله، قدره الله تعالى في القدم"(٤).

ويتصل بالنزعة الدينية أيضًا ما اتضح في نزهة الناظر من اعتبار النازلة التي تقع للبعض بمثابة العقاب من الله تعالى(٥)، وقد جاء ذلك في سياق حديثه عن أحد الظلمة الذي تولى أحد الجهات، وأحدث في ولايته حوادث شنيعة من الظلم والعسف، ولكن ما لبث أن تم الإيقاع به فحُبس وعُوقب وصُودر، وعنه قال اليوسفي: "... وكان رجل سلط بلسانه جرى على الناس، وفيه ظلم وعسف، ... وأحدث حوادث عظيمة أخذه الله بها"(٦).

ومنه ما ذكره عن أحد ولاة النواحي وما وقع له من الحبس والمصادرة، إذ به يعقب على ذلك بقوله: "ولقاه الله تعالى سريع"(٧). وعليه فهو يعتبر أن ما ينزل من العقاب بأمثال هؤلاء الظلمة، إنما هو عقاب من الله على ما اقترفوا من الذنوب.

ومنه أيضًا ما جاء في سياق حديثه عن فتح المسلمين لإياس موضحًا ما كانت تنعم به من الخير والثراء، ثم ما حدث لها بعد ذلك من التخريب موضحًا الحكمة في ذلك بقوله: "وأما ما ذكروه عن هذا البلد وما كان يُعمل فيها من أسباب الكفر والفسق وفساد الإسلام وانتهاك الحريم، ...، وظهور قدرة الباري عز وجل وصنعه في أمرها وخرابها"(٨) وعليه فهو يجعل ما حل بها من الخراب والدمار بعد الثراء والنعم؛ إنما هو عقاب من المولى عز وجل وإظهارًا لسننه في خلقه، وعليه يتضح مدى اهتمام اليوسفي بالعقيدة وتصوراتها وأحكامها، والتي هي غاية مهمة في منهج كتابة التاريخ عند المسلمين(٩).

---

(١) نزهة الناظر، ص١٣٥.

(٢) نزهة الناظر، ص١٤١.

(٣) نزهة الناظر، ص١٨٥.

(٤) نزهة الناظر، ص٣٢٢، وللمزيد انظر، ص٢٨٧، ٣٤٧: ٣٤٨، ٣٧٦: ٣٧٧.

(٥) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص٨٣.

(٦) نزهة الناظر، ص٣١٠: ٣١١، وعنه أيضًا انظر، ص٢٤٩: ٢٥١.

(٧) نزهة الناظر، ص٣٤٥.

(٨) نزهة الناظر: ص٤٠٧: ٤٠٨.

(٩) محمد بن صامل: منهج كتابة التاريخ، ص١٦٥.

ويتصل بهذا الجانب الديني عند اليوسفي أيضًا ما كان يردد من عبارات الترحم والدعوة بالمغفرة لما أورد من تراجم، فكثيرًا ما كان يختم الترجمة بقوله: "رحمه الله" أو "تغمده الله برحمته"(١) وهي الأغلب، وكذلك: "تغمده الله برحمته وعفا عنه"(٢).

ومن هذا القبيل أيضًا ما كان يعقب به من عبارات عند ذكره للأماكن المقدسة كالمدينة المنورة إذ يقول: "على ساكنها السلام"(٣)، وعند ذكر مكة المكرمة يعقب بقوله: "شرفها الله تعالى"(٤).

فضلاً عن ذلك كان اليوسفي حريصًا على الاستعانة بأقوال الحكماء لأخذ الحكمة والموعظة الحسنة منهم، ومن أقوال الحكماء التي أوردها: "إياكم ومصاحبة الأشرار، وإياكم ومرافقة رجل السوء"(٥). ومن قولهم "والطبيعة مكافية لكل أحد"(٦) هكذا يعترف اليوسفي بفضل أهل الحكمة والتجربة، ويؤكد على ضرورة الاعتبار بما يرد عنهم، لما فيه في الخير والفلاح.

منهجه في عرض المادة:

-التحليل:

وبالاطلاع على ما وصل إلينا من كتاب نزهة الناظر، نجد أن اليوسفي اتبع المنهج التحليلي، وهو الخروج بالمؤرخ من مجرد الإخباري(٧)؛ إذ عمد إلى تحليل الكثير من الأخبار، والتحقيق في القضايا التي عرضها، فضلاً عن إثارة الآراء المطروحة مع التحليل لها والاستنباط منها؛ ليقدم للقارئ ما هو أقرب إلى الصواب.

ومن ذلك ما ذكره اليوسفي في أحداث سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٤م من التحقيق في وفاة الأمير بكتمر وابنه، والسبب الذي تزرع به السلطان ضد بكتمر، ورغم أنه قدم شرحًا وافيًا للواقعة وملابساتها؛ إلا أنه يُتبع ذلك بما ورد على الألسنة بشأن هذه القضية، حيث قال: "...فمن الناس من نقل عنه أنه اتفق مع جماعة... للعمل على السلطان، ... وربما أشاع السلطان وأظهره بعد موت بكتمر.... أنه عاقب أحدهم (أي المماليك الهاربين) وأنه اعترف على بكتمر أنه عمَّال على السلطان"(٨).

ولم يكتف اليوسفي بذلك، بل قدم الأدلة التي تؤكد صحة ما اعتمده وذهب إليه، من ذلك تأكيده

---

(١) نزهة الناظر، ص١٣٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٩، ٢٧٣، ٢٧٧، ٣٨٦.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٨٥.

(٣) نزهة الناظر، ص٣٣١.

(٤) نزهة الناظر، ص١٣١.

(٥) نزهة الناظر، ص١٨٣.

(٦) نزهة الناظر، ص١٣٨.

(٧) عبدالعليم خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ص٢٦.

(٨) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٥٣: ١٥٤.

على تحايل السلطان في قتل بكتمر للوصول إلى زوجة ابنه أحمد(١)، بل ويزيد بأن أحد أمراء السلطان المقربين كان له رغبة بزوجة بكتمر نفسه، وأنهما – أي السلطان والأمير– قد اتفقا على التخلص من بكتمر وابنه، مقدمًا الأدلة التي تؤكد صحة ما ذهب إليه، حتى "يتحقق كل أحد أن الذي قدمنا ذكره من الغرض..." وذلك بعد تحليل دقيق لموقف السلطان، وبحث وتقص ليؤكد على صحة ما ذهب إليه(٢).

ولم يقف الأمر عند اليوسفي في تحقيق تلك القضية عند هذا الحد القائم على الاستنتاج والاستدلال، بل يزيد في التحري حتى بعد وفاة السلطان. إذ يسأل طبيب السلطان، والذي اتهم بمساعدة السلطان في تحضير السقيا لبكتمر والتخلص منه كما يقول الناس، بل ويستحلفه أن يصدقه الحديث – مستغلاً الصداقة التي تجمعهما– فيما إذا كان فعل ذلك أم لا، والذي حلف له أيمانًا مغلظة أنه لم يكن على علم بشيء مما يقوله الناس، ورغم تغطية القضية من شتى الجوانب، إذ به يعقب بأنه: "أورد من الأخبار ما وصلت القدرة إليه"(٣) وتجدر الإشارة إلى أن هذا التحقيق والتحليل الوافي قد انفرد به اليوسفي دون غيره من مؤرخي تلك الفترة.

ومن ذلك أيضًا ما عرضه عند الحديث عن موت الأمير مهنا، والذي أكد أنه حضر موته وأنه مات ميتة ربه مبطونًا لا سُم ولا غيره ومن نقل غير ذلك ليس بصحيح(٤). ويشبه ذلك تحقيقه في قضية بنت أزبك التي تزوجها السلطان ثم طلقها وزوجها أحد أمرائه، ولما طلبها والدها ادعى موتها وأشهد على ذلك(٥).

ومنه كذلك ما جاء في أحداث سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م عندما أمر السلطان بإرسال تجريده إلى سيس، إذ باليوسفي يحلل وجهة نظر السلطان في الموقف، ويشير إلى صواب رأيه فيما قرره من إرسال حملة في ذلك الوقت بالذات(٦).

إذن فاليوسفي لم يعتمد على مجرد النقل(٧)؛ وإنما خرج بالتاريخ من النطاق الوصفي إلى نطاق

---

(١) وهي ابنة الأمير تنكز وكان السلطان هو من طلب من تنكز تسيير ابنته ليزوجها من ابن بكتمر، ولكن عندما وقع نظر السلطان عليها تبدلت الأحوال إذ شغف بها، ومالت نفسه إليها لدرجة أنه صرح بذلك لزوجة بكتمر قائلاً: "يا أم أحمد والله لو علمت أن بنت تنكز لها هذا القد وهذا العنق وسواد هذا العيون، ما كان يزوجها غيري" اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٥٢: ١٥٣.

(٢) نزهة الناظر، ص١٥٢: ١٥٩.

(٣) نزهة الناظر، ص١٦٢. وعنه أيضًا انظر، ص١٧٠: ١٧١.

(٤) نزهة الناظر، ص٢٨٠: ٢٨١.

(٥) نزهة الناظر، ص٢٣٥: ٢٣٦، وعنه أيضًا انظر ٢٣٧: ٢٤٠، ٣٦١: ٣٦٢.

(٦) للمزيد انظر نزهة الناظر، ص٣٦٣: ٣٦٧، وعنه أيضًا انظر ص٢٣٦: ٢٤٠، ٣١٣: ٣١٧.

(٧) ابن خلدون: المقدمة، ص١٦.

التحليل والتعليل. وعليه فهو يعتمد القواعد والطرق المعتمدة في إثبات الحقائق والوقائع التاريخية أو نفيها[١]، ومنها الاستدلال القائم على النظر والاستنتاج من مجموعة أدلة وقرائن منطوقة كانت أو مفهومة[٢]، وذلك من خلال الاعتماد على العقل في التعليل والمناقشة المنطقية[٣]، عن طريق ترتيب الأدلة والموازنة بينها[٤]؛ للوصول إلى ما هو أقرب إلى الحقيقة كما في قوله: "والسبب الذي تحققت صحته"[٥].

ولاشك أن هذا المنهج يحتاج من المؤرخ اعتماد أكبر قدر من الروايات التي تصل إليه، مع الحرص على انتقاء مصادر هذه الروايات والتأكد من أنها ثقة، حتى يتجنب مذلة الخطأ قدر الإمكان، ويؤكد ابن خلدون أن تحري الثقة بالناقلين تزيد من صدق الخبر، وكذلك عدم التشيع لرأي معين يعطي الخبر حقه من التمحيص والنظر، حتى تبين صدقه من كذبه[٦]؛ وقد كان اليوسفي حريصًا على هذا المنهج إلى حد بعيد، مؤكدًا عليه بقوله: "... على أنني لم أذكر شيء عن أمر واقع إلا ممن أثق به ويشهر أمره بين جماعة ويشاع"[٧].

وعليه كان كثيرًا ما يصرح بأسماء موثوق بها قامت بنقل الخبر إليه[٨]. وربما لا يصرح بالمصدر؛ ولكن يؤكد على ثقته به، كما في قوله: "أخبرني ثقة أن..."[٩] و"أخبرني ثقة ممن كان له إطلاع على السبب"[١٠] وأحيانًا "وحكى لي الناقل عنه..." مع تقديم وتوضيح لشخص ووصف الناقل، وإن لم يذكر اسمه[١١]. وربما نقل الخبر وتحراه من مصادر عدة، وإن كانت هناك أكثر من رواية ذكرها؛ حتى ينقل الجانب الآخر من الروايات أو الآراء[١٢]، وربما يقارن بين الروايات لينقل الأقرب إلى الصحة، وعنه يقول: "واستوضحت أمر ما اتفق..."[١٣] وربما سافر إلى بعض النواحي لسؤال

---

(١) عنها انظر محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ، ص٩٣.

(٢) محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ، ص١١٦.

(٣) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٤٥٥.

(٤) محمد بن صامل: منهج كتابة التاريخ، ص١١٥.

(٥) نزهة الناظر، ص١٦٨.

(٦) المقدمة، ص٤١.

(٧) نزهة الناظر، ص١٥٤، وعنه أيضًا انظر، ص٣٨٨.

(٨) عنه انظر نزهة الناظر، ص١٤٥، ١٥١، ١٥٦، ١٥٩، ١٦١: ١٦٢، ١٦٥، ١٧٨، ٢٠١، ٢٠٣، ٣٧٦: ٣٧٧.

(٩) نزهة الناظر، ص١٥٤، وعنه أيضًا انظر ص١٦٥، ٢٤٠.

(١٠) نزهة الناظر، ص١٧٠.

(١١) نزهة الناظر، ص١٧٠ وعنه أيضًا انظر ص١٤٢، ١٤٥، ١٧٣، ٣٣٣، ٤٠٧: ٤٠٨.

(١٢) نزهة الناظر، ص١٤٣، ١٤٥، ١٥٣.

(١٣) نزهة الناظر، ص١٧٠.

أهلها عن أمر ما للتحقق من صحته[١]، أو حتى سؤال من حضر الواقعة أو الحدث[٢]، وما لا يثق به يضيفه إلى ناقله ويجعل عهدته عليه[٣]. وما ذلك كله إلا ليستوثق مما يقدم من أخبار، وقد أكد ابن حجر على أمانة اليوسفى وتحريه الدقة فى النقل[٤].

-السببيـة:

يرى العلامة ابن خلدون أن التاريخ لم يعد أخبارًا وحوليات فقط؛ ولكنه نقد للحقائق وبحث عن أسبابها[٥]، وكثيرًا ما عمد اليوسفي إلى استخدام مبدأ السببية عند عرض أخباره؛ فكان يقدم الحادثة أو الخبر، ثم يبحث أسبابها إذ يرد عنده كثيرًا "وكان السبب"[٦]، وكذلك "وكان السبب لذلك"[٧] أو "وبسبب كذا"[٨] و"ذكروا أن السبب"[٩] و"ذكر السبب لوقوع كذا"[١٠] و"السبب لذلك"[١١] و"السبب لكذا....."[١٢] و"سبب كذا..."[١٣] "والسبب في ذلك...."[١٤] وأيضًا "والسبب الموجب لذلك"[١٥] وهكذا، وبعدها يأخذ في شرح الأسباب بالتفصيل بما يوحي بإطلاعه الدقيق على سير الأحداث آنذاك، وإذا حدث ولم يكن عنده علم بسبب الحدوث يصرح بذلك، ومنه قوله: "وأنه لم أجد السبب"[١٦]. وتجدر الإشارة إلى أن هذه من المرات القليلة – بل النادرة– التي يصرح فيها بذلك، ولكنه أخذ في التقصي والسؤال حتى علم ما يريد[١٧].

---

(١) نزهة الناظر، ص٢٦٠.

(٢) نزهة الناظر، ص١٤٦، ١٧٣، ١٧٥، ٢٦١، ٤١٥.

(٣) نزهة الناظر، ص١٦٦، ٣٢٢.

(٤) الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨١.

(٥) المقدمة، ص١٦.

(٦) نزهة الناظر، ص١٢٥، ١٤٠، ١٦٣، ١٩٤، ٢٦٤، ٣١٧، ٣٤٢.

(٧) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٨٨، ٣٣٨.

(٨) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٢١.

(٩) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٣٩.

(١٠) اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٤٠.

(١١) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٨٦.

(١٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٧٢، ٣٠٥.

(١٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٨٢.

(١٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٩١، ٣٦٢.

(١٥) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٩١، ٣٩٢.

(١٦) نزهة الناظر: ص٢٠٣.

(١٧) نزهة الناظر: ص٢٠٣: ٢٠٦.

- الموضوعية والنقد[١]:

رغم كون اليوسفي من مقدمي الحلقة السلطانية؛ فإن ذلك لم يؤثر على شخصيته وتسجيله للأحداث بكل موضوعية وتجرد من التبعية للسلطان، فكان كثير النقد له ولأمرائه، لا يتوانى في إظهار الصفات السيئة للسلطان[٢]، وأحيانًا كان يشيد به ويثني عليه، إذا وجد ما يستحق ذلك؛ مما يؤكد على موضوعيته وعدم ميله لأهواء بعينها.

ففي مجال النقد نراه ينتقد السلطان فيما ذهب إليه من قتل أحد الأشخاص في الحرم سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م مستنكرًا وواصفًا فعلته تلك بقوله: "تجاوز في الفحشاء حده"[٣]. كما كان كثيرًا ما يتحدث عن رغبة السلطان في جمع المال والاستيلاء عليه بأي شكل، وهو الأمر الذي عرفه عنه النشو، وأخذ يتقرب إليه به، حتى قال عنه اليوسفي في معرض حديثه عن بعض المصادرين: "وقد تقدم ذكر القيام في ذلك من النشو وما قصد به التقرب لخاطر السلطان وميله مع غرضه، وأن يبلغ مقاصده إذا بلغ السلطان مقصده من أخذ أموال الناس، وظلم التجار ونهب الأموال من حيث وجدت"[٤] ،ويقول في موضع آخر يؤكد على الاتفاق بين السلطان والنشو " على خراب البيوت العامرة وهتك الحريم وتحصيل الأموال"[٥] ،كما أشار إلى انقياد السلطان للنشو وتسليم أمره إليه[٦].

كما انتقد السلطان في اختياره بعض الموظفين من الظلمة[٧]، ثم ثنائه عليهم وتشدقه بحسن صنيعهم وهمتهم في جمع المال[٨]، معللاً ذلك بحب السلطان لجمع المال ،حتى صار ما يعرف كل يوم إلا ذهب يُحمل إليه "لا يعلم جمعه ولا من أين يحضره"[٩] كما وصف السلطان بأنه فيه مكر ودهاء [١٠] ومزور أحيانًا[١١]، وناقضًا للعهد أحيانًا أخرى[١٢]، فضلاً عن كرهه أن يرى آثار

---

(١) يطلق لفظ الموضوعية للدلالة على المنهج أو الأسلوب المجرد من المؤثرات الذاتية، عنه انظر محمد بن صامل السلمي: منهج كتاب التاريخ، ص١٢٥.

(٢) ويختلف في طريقته هذه عن بعض معاصريه أمثال أبوالفدا وكتابه المختصر، والذي يحاول جاهدًا إظهار الجانب الجيد من شخصية السلطان، كإبطال المكوس والضرائب وفعل الخير، عنه انظر، ج٤، ص٦٢.

(٣) نزهة الناظر، ص١٧٣.

(٤) نزهة الناظر، ص١٧٧.

(٥) نزهة الناظر، ص١٧٩.

(٦) نزهة الناظر، ص١٨٥.

(٧) نزهة الناظر، ص٢٥٤: ٢٥٥.

(٨) نزهة الناظر، ص٢٤١.

(٩) نزهة الناظر، ص١٢٨: ١٢٩.

(١٠) نزهة الناظر، ص١٣٧.

(١١) نزهة الناظر، ص٢٣٥.

(١٢) نزهة الناظر، ص١٧٤: ١٧٥.

سابقيه[١]. كما لم يتردد في إيراد عبارات القدح والانتقاد التي ذكرت على ألسنة البعض، منها ما جاء عنه على لسان أحد أمراء العرب الذي قال عنه: ".... ومن يكون عديم الدين قليل الوفاء غدار مكار، كيف يكون له طاعة تجب على كل أحد"[٢].

أضف إلى ذلك كله وما وصف به السلطان من ميل للنساء، وأن التي يرغب فيها لابد أن يصل إليها مهما كان الثمن، ومن ذلك مثلاً رغبته في زوجة ابن بكتمر، والتي من أجلها قتل بكتمر وابنه[٣]. كما سبق الإشارة إلى ذلك.

ولكن إذا وجد ما يستحق الثناء من جانب السلطان أظهره وسجل ثناءه عليه، من ذلك مثلاً أنه وصفه بـ "حشم النفس في الأمور التي تتصل بالفواحش"[٤]، كما ذكر أن السلطان يكره صنعة التنجيم[٥]، وأحيانًا يظهره بالشخص العادل الناطق بالحق المعترف بالفضل لأهله[٦]، الحريص على اختيار الصالحين أحيانًا لتولي بعض المناصب[٧]، ومنها أيضًا استماعه لنصائح المخلصين أحيانًا، وإبدائه الموافقة عليها، بل والاستعداد لتنفيذها[٨]، وكذلك إبطاله لبعض العقوبات[٩]، فضلاً عن نظره فيما يقدم العامة من ظلامات وتحقيقه فيها لرفع الظلم عنهم[١٠]. أضف إلى ذلك كله ثناء اليوسفي الواضح على السلطان ودعائه له في مكاتباته الرسمية خاصة عند فتح سيس[١١].

وإذا كان اليوسفي قد اتبع الموضوعية في حديثه عن السلطان، فإن الأمر لم يختلف فيما يخص تناوله لرجال الدولة، إذ أظهر جرأة في نقده للكثير منهم، من ذلك مثلاً نقده لوالي القاهرة، والذي عدد أفعاله الظالمة، معقبًا على ذلك بقوله: "وهذا لم يسبق إليه والي قط"[١٢]؛ ووصفه لآخر بقوله: "كان رجل سلط بلسانه جري على الناس، وفيه ظلم وعسف"[١٣] كما لم يسلم الكُتّاب من نقده طالما

---

(١) نزهة الناظر، ص٢٦٤: ٢٦٥.

(٢) وقد جاء ذلك على لسان منها أمير عرب الشام أثناء هروبه إلى مغول فارس عنه انظر، ص٢٠١: ٢٠٣.

(٣) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٥٢: ١٥٣، ١٥٩، وعنه أيضًا انظر، ص١٧٧: ١٧٨.

(٤) نزهة الناظر، ص٢٧٠: ٢٧١.

(٥) نزهة الناظر، ص٢٤٦: ٢٤٧.

(٦) نزهة الناظر، ص٣٢٠: ٣٢١.

(٧) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢٩٦: ٢٩٧، ٣٥٩، ٣٦٩.

(٨) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٠٧.

(٩) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٦٩.

(١٠) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٧١.

(١١) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٤٠٤، ٤١٧: ٤١٩.

(١٢) نزهة الناظر، ص٢١١، وللمزيد انظر ص١٦٧، ١٦٩، ١٩٤، ٢٦٥.

(١٣) نزهة الناظر، ص٣١٠، وللمزيد انظر ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢.

توفر فيهم ما يستحق ذلك[١].

أضف إلى ذلك نقده المستمر واللاذع للنشو وأعوانه، وقد وصفهم بالمناحيس والظلمة، وأطلق عليهم "أعوان الظلم"[٢]، كما وصف مجلسهم بالمجلس الشيطاني[٣]، وهذا مع شرح تفصيلي للكيفية التي يتعامل بها النشو مع الرعية، وطرقه الملتوية والغير شرعية لتحقيق هدفه الأكبر وهو جمع المال، مع التأكيد المستمر على ظلمه، وفتح باب المظالم على الناس[٤]، وفي مثل هذا الموقف أيضًا يقول: "وبذلوا من القبايح والفواحش في أمر الظلم والعسف والعقوبة ما تجاوز حده"[٥]. وفي المقابل لم يكن يتردد في إظهار الجانب الجيد والثناء على من يستحق من موظفي الدولة ورجالها[٦]، ومن ذلك ما ذكره عن أحد ولاة القاهرة حيث قال: "ومشى في ولايته مش حسن مع أهل المدينة"[٧].

مما سبق يتضح وبشكل جلي اعتماد اليوسفي منهج الموضوعية، القائم على الحيادية والتجرد[٨] من أي ميول أو رغبات في السلطان ورجال دولته، فهو ينقد إذا وجد ما يستحق النقد، ويثني إذا وجد ما يؤهل للثناء، ولا يخفى مدى أهمية هذا المنهج لدى المؤرخ، الأمر الذي يؤهله لتقديم تاريخ موثوق به.

-الوصف الدقيق:

اعتمد اليوسفي في مؤلَفه على المنهج الوصفي التفصيلي للأحداث لإيصال الصورة للقارئ مدعمًا إياها بجمل تزيد إقرارها ورسوخها في ذهن القارئ، إذ حرص على تقديم وصف تفصيلي للمشاهد والأحداث التي عرض لها، حتى أصبح ذلك السمة الغالبة عنده، فهو يعرض الخبر أو الحادثة ثم يأخذ في سردها وشرحها بما يعطي صورة متكاملة عنها، تجعل القارئ وكأنه يعاينها، وأحيانًا يعقب بجمل تزيد الموقف وصفًا ودقة، من ذلك مثلاً ما ذكره عن موت بكتمر ووصفه لحال أهله حيث قال: "وما رأي أحد من الناس أفجع من ذلك اليوم ولا أوجع من ذلك القوم"، ثم يسترسل في وصف حال زوجته، وما اعتراها من الحزن آنذاك، ورد فعل الحاضرين على ما بدى عليها حيث قال:

---

(١) نزهة الناظر، ص١٣١: ١٣٢.

(٢) نزهة الناظر، ص٢٧٥.

(٣) نزهة الناظر، ص١٣١، ١٨٠.

(٤) نزهة الناظر، ص١١٩: ١٢٠ وعنه انظر ص٣١٠: ٣١١.

(٥) نزهة الناظر، ص١٨٩: ١٩٠، للمزيد انظر ص٢٦٦.

(٦) للمزيد انظر نزهة الناظر، ص١٨٠، ٢١١.

(٧) نزهة الناظر، ص٢٣١: ٢٣٢. وعنه أيضًا انظر، ص١٣٢: ١٣٣، ١٩٥، ٢٣٦: ٢٤٠، ٢٥١،٢٧٣، ٣٢٦، ٣٢٧.

(٨) التجرد هو الانفصال عن كل المؤثرات النفسية والاجتماعية والأهواء والميول والرغبات. عنه انظر محمد بن صامل: منهج كتابة التاريخ، ص١٢٨.

"وبكّت العالم توجعًا لها"[١].

ومنه أيضًا ما أورده عن الخلاف بين أحد الأمراء ووالي القاهرة، وتطاول الأمير على الوالى، مما أدى بالأخير إلى اللجوء إلى السلطان، والذى أنكر فعل الأمير ،فلما دخل إلى المجلس عبس السلطان في وجهه ، ورغم المفاوضات من الأمير للسلطان إلا أنه لم يستجب له، بل نهره وأهانه وسبه، وزاد اليوسفي في وصف الموقف حتى قال: "وخرج من قدامه وهو لا يعرف الطريق"[٢]. كناية عن شدة الإهانة للأمير وما ترتب عليها من أثر نفسي لدى الأمير جعله وكأنه لا يرى الطريق.

ومنه أيضًا ما فعله النشو بالتجار سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م من ظلم واستيلاء على الأموال، والذي عقب عليه بقوله: "ولم يبق إلا باك أو شاك أو صائح أو نائح، كل أحد على قدر مصيبته"[٣].

وكذلك وصفه لمشهد استقبال السلطان لنائب دمشق سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م إذ قدم وصفًا دقيقًا نقل فيه صورة حية لهذا المشهد بكل أبعاده[٤]، وعقب عليه بقوله: "ورأت الأمراء ذلك اليوم من السلطان وما عظم به نايب الشام ما لا رآه أحد منهم، ولا سُمع أنه اتفق لأحد من الملوك مع نايبه أو مملوكه مثل ما اتفق له"[٥].

ومن ذلك أيضًا ما قدمه اليوسفي عن الحملة المجردة إلى سيس بكل تفصيلها، بداية من التجهز لها وصدور الأمر السلطاني بالخروج وخط سيرها بكل دقة، وما تخللها من أحداث وخلافات بين الأمراء حتى الوصول إلى سيس، مع تصوير للجيش ومدى مهابته في النفوس، ثم ما حدث في سيس وما منّ الله به على المسلمين، وما تخلل ذلك من مفاوضات، إلى أن تم تسليم القلاع إلى المسلمين، وما قاموا به من تنظيم لشئونها، كما وصف كل ما شاهده هناك، ثم خط سير العودة حتى وصولها إلى مصر، وما حدث من الاحتفاء بأمر العسكر[٦]؛ مما يجعل القارئ وكأنه معاينًا لها معايشًا لكل ما نقل المؤلف.

---

(١) للمزيد انظر نزهة الناظر، ص١٤٧. وللمزيد انظر، ص١٨٩.

(٢) نزهة الناظر، ص١٩٧: ١٩٨، وعنه أيضًا انظر، ص١١٣: ١١٦، ١٢٣: ١٢٤، ١٣٢: ١٣٣، ١٣٨: ١٣٩، ١٤٦: ١٤٧، ١٥٢: ١٥٤، ١٧٩، ١٨٩، ٢٤٥، ٣٠٩: ٣١٠.

(٣) نزهة الناظر، ص٣٥٨. وعنه أيضًا انظر، ص١٨١، ١٧٩، ٢٤٥، ٣٢٠.

(٤) اليوسفي: نزهة النظر، ص٣٦٣.

(٥) نزهة الناظر، ص٣٦٤.

(٦) نزهة الناظر، ص٣٦٤: ٣٦٨، ٣٩٤، ٤١٩. وللمزيد انظر، ص١٣٨: ١٣٩، ١٧٠، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٥، ٢٣٠، ٢٧٥، ٣٨٢: ٣٨٣.

-الاختصار:

عمد اليوسفي إلى الاختصار في بعض الأحيان، خشية التطويل؛ من ذلك مثلاً قوله: "وهذا على سبيل الاختصار"(١) أو "ما نذكره على سبيل الاختصار"(٢) وكذلك "واختصار الأمر أنه.... كذا"(٣) و"مختصر الأمر ... كذا"(٤).

-الإحالات والتشبيهات:

أحيانًا يلجأ اليوسفي إلى الإحالة حتى يربط بين الأحداث كي لا يلجأ إلى التكرار؛ فكثيرًا ما يرد عنده "قد تقدم ذكر ... كذا"(٥) أو "واتفق له ما ذكرناه"(٦) و"كما تقدم ذكره"(٧) و"قدمنا ذكر كذا"(٨) و"المقدم ذكره سنة... كذا"(٩). أو "كما ذكرنا"(١٠) أو "كما قدمنا"(١١).

وربما أحال على ما سيأتي ذكره لاحقًا كقوله: "ما سنذكره"(١٢). ومن ذلك ما ذكره عندما أشار إلى الإفراج عن الأمراء المعتقلين في أحداث سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م إذ به يعمد إلى سرد سيرهم وأحوالهم في تواريخ سابقة، وذلك للتعريف بهم وبسيرهم وسبب اعتقالهم؛ حتى تكتمل الصورة في ذهن القارئ(١٣).

وربما استعمل التشبيهات في مؤلفه كأن يشبه شيئاً بآخر، من ذلك ما جاء عنده في أحداث سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م من تشبيه والي القاهرة آنذاك بآخر كان تولاها سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م من حيث ظلم العامة وإرهاب الناس(١٤).

---

(١) نزهة الناظر، ص١٥٠.

(٢) نزهة الناظر، ص١٥١.

(٣) نزهة الناظر، ص١٩٧.

(٤) نزهة الناظر، ص٤١٦.

(٥) نزهة الناظر، ص١٥٥، وللمزيد انظر، ص٣٨٨، ٣٩٢، ٤١١.

(٦) نزهة الناظر، ص١٨٩.

(٧) نزهة الناظر، ص٢١٦، ٢٧٧، ٢٨٦، ٣٣٢.

(٨) نزهة الناظر، ص٣٦٠، ٣٩٤.

(٩) نزهة الناظر، ص٣٨٩.

(١٠) نزهة الناظر، ص٣٠٦.

(١١) نزهة الناظر، ص٣٧٢.

(١٢) نزهة الناظر، ص٢٧٧.

(١٣) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢٣٢: ٢٣٦.

(١٤) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٩٧.

-التحديد الجغرافي:

عندما يعرض اليوسفي لمكان معين غالبًا ما يحدده أو يعرف بذلك المكان قدر المستطاع، من ذلك ما عرض له في أحداث سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م. عندما خرج والي القاهرة إلى مكان وكبسه، وهذا المكان يعرف بالنجيلة(١)، قال عنه المؤرخ: "كان مجمع للناس، ودار النجيلة أخصاص وفرج يجتمع الناس فيها ويباتوا"(٢). ومن ذلك أيضًا عندما عرض اليوسفي لمكان في القدس يعرف بقناة العروب معرفًا إياه بأنه "النهر الذي يدخل إلى القدس"(٣) وعليه نجد حرص اليوسفي واضحًا على التعريف ببعض الأماكن أو حتى إعطاء نبذه عنها لتوضيح الصورة في ذهن القارئ.

مآخذ على أسلوب اليوسفي:

أ- التداخل بين الأخبار:

أحيانًا كانت الأخبار تتداخل في كتاب النزهة فلا يوجد فصل بينها، إذ ربما يضع عنوانًا لأمر معين، ويتحدث عنه بالفعل، ولكن نجده فجأة يذكر تحت نفس العنوان كلامًا آخر يخص أحداثًا أخرى، فمثلاً يضع عنوانًا لمقتل أحد الأشخاص بالحرم على يد رجال السلطان ويعرف بـ "ياسور" فيقول: "ذكر مقتل ياسور"(٤) وبعد أن يكمل الخبر ودون فاصل نجده ينتقل إلى خبر آخر وهو قدوم نائب الشام(٥).

ومنه أيضًا ما فعله عندما وضع عنوانًا لـ "ذكر الإفراج عن الأمراء المعتقلين"، والذي لم يتعد الحديث عنه أربعة أسطر، إذ به ينتقل ودون فاصل إلى خبر آخر(٦). ومنه أيضًا عندما تحدث عن أشراف الحجاز، إذ به ينتقل بالحديث ودون أن يشعر القارئ إلى خبر آخر يتعلق بمن هم تحت العقوبة، والذين كان قد تحدث عنهم في صفحات سابقة(٧).

ب- تقطيع الأخبار والتكرار:

أحيانًا يظهر عند اليوسفي تقطيع الأخبار أو تقطيع الحادثة الواحدة كما هو الحال عند حديثه عن بكتمر الساقي وأمر المماليك الهاربين، فبعد أن يذكر بعض المعلومات التي تخص بكتمر، إذ به يقطعها مع الإشارة إلى أنه سيكملها، مما يوهم القارئ أن الأمر متصل بالوقت، أو بالمنهج الحولي

(١) النجيلة: مكان بالقاهرة كان متنزهًا للعامة آنذاك. المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٧٩.

(٢) نزهة الناظر، ص٢١١.

(٣) نزهة الناظر، ص٣٦٣. وعنه أيضًا انظر، ص٤١٠.

(٤) ياسور: أحد أمراء المغل المغضوب عليهم من قبل أبي سعيد سلطان مغول فارس، والذي طلب من السلطان التخلص منه، وبالفعل تم قتله في الحرم أثناء تأديته مناسك الحج. للمزيد انظر: نزهة الناظر، ص١٧٠: ١٧٥.

(٥) نزهة الناظر، ص١٧٥: ١٧٦.

(٦) نزهة الناظر، ص١٩١.

(٧) نزهة الناظر، ص٢٥٨.

الذي يقتضي أحيانًا تفتيت الحوادث، ولكن للأسف نجد أن الأمر لا علاقة له بذلك؛ وعليه كان الأَولى أن يذكرها متصلة[١]، خاصة وأن ذلك يضطره إلى تكرار بعض الكلام. ومنه أيضًا ما ذكره عن الأزمة الاقتصادية الواقعة سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م فبعد حديثه عن الأزمة وقلة الأقوات وما فعله السلطان لتجاوز الأزمة، إذ به ينتقل إلى الحديث عن وفاة أبي سعيد والخلاف بين تتار فارس على من سيجلس على تخت الملك، ثم بعدها يعود ويتحدث عن آثار الأزمة وما ترتب عليها من خلاف بين أمراء المماليك؛ مما يؤدي أحيانًا كثيرة إلى التكرار[٢]. فكان الأولى أن يجمع الحادثة أو الأخبار المتصلة بها حتى يستقم المعنى ولا يلجأ للتكرار، وقد ظهر ذلك عنده أكثر من مرة[٣]؛ الأمر الذي ربما يؤدي إلى ملل القارئ أو اضطراره للقراءة أكثر من مرة حتى يستقر المقصود في ذهنه.

الأسلوب الأدبي عند اليوسفي:

يُذكر أنه لم يبتدع الكتّاب أسلوبًا خاصًا للكتابة التاريخية، وإنما جرى التدوين ضمن أسلوبين، إما الأسلوب المرسل الذي كتب به معظم المؤرخون كتبهم ، وإما الأسلوب الأدبي المتأنق[٤]، هذا بشكل عام، أما مع بدايات العصر المملوكي؛ فيُذكر أن الخط البياني للأدب التاريخي يبدأ مطالع العصر وهو في أحسن أحواله بالنسبة للعصر كله من حيث السلاسة والصحة، وتستمر الكتابة التاريخية على هذا النحو حتى نهاية القرن الثامن الهجرى على أننا ما نصل إلى أواخر هذا القرن حتى نجد أن الخط البياني قد بدأ بالهبوط القياسي[٥].

وبالرغم من ذلك فإن هناك بعض الأمور المشتركة بين مؤرخي تلك الفترة، وإذا نظرنا إلى الأسلوب الأدبي عند اليوسفي سنجد أننا أمام شخصية تختلف إلى حد ما، فلا يوجد خط واحد للكتابة عند اليوسفي، إذ يختلف أسلوبه كثيرًا في عرض الأحداث وسردها – كما سيأتي تفصيله– عن أسلوبه عندما يكتب رسائل أو كتابات رسمية.

وإذا نظرنا إلى ما بين أيدينا من نزهة الناظر، سنجد أن اليوسفي قد ضمنه قدرًا لا بأس به من الأبيات الشعرية، خاصة في تراجمه وما أنشد أصحابها من أشعار أو مقطوعات نثرية، وكذلك ما قيل في شأنهم. منه مثلاً ما أورده عند ترجمته للشيخ فتح الدين بن سيد الناس اليعمري، والذي أورد له بعضًا مما نظمه في المواقف المختلفة من شعر أو نثر، وكذلك بعض رسائله الشعرية والنثرية

(١) انظر نزهة الناظر، ص١٣٥: ١٦٦.

(٢) عنه انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٩٨: ٢٩٩، ٣٠٥: ٣٠٧.

(٣) للمزيد انظر اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٧٦: ١٧٧، ١٨٨، ٣٢٠، ٣٥٠، ٣٦٤: ٣٦٥.

(٤) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج١، ص٣٩٩.

(٥) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص٧٣.

إلى أحد أقاربه بالمغرب والرد عليها، ويؤكد اليوسفي أنه اطلع على بعضها[١]، وكذلك مراسلات بين الشيخ وبين الصفدي المؤرخ، وقد نقل اليوسفي بعضًا منها[٢]، كما أورد بعض الأبيات التي نظمها سلطان تتار فارس المعروف بأبي سعيد[٣].

كما كان أحيانًا يستحضر أبياتًا شعرية منسوبة إلى بعض الشعراء تتناسب مع الموقف المذكور، من ذلك مثلاً وصفه لحال زوجة بكتمر بعد وفاته وما اعتراها من حزن، حيث أنشد قول الشاعر:

سارت سفاينهم والنوح يتبعها * كأنها إبل يحدو بها الحاديِ**

كم سال في الماء من دمع وكم حملت * تلك القطايع من قطعات أكبادِ**

حُطَّ القناع فلم تُسْتَر مخدرة * ومُزِّقت أوجهٌ تمزيق أبرادِ**[٤].

أضف إلى ذلك أن اليوسفي كان يتمتع بملكة أدبية لا بأس بها، وكان هو نفسه ينظم شعرًا ونثرًا، وقال عنه الصفدي: "..... وكان يعاني شيئًا من النظم والنثر على عاميته، ويأتي به طباعًا من غير تكلف على سجيته، فيأتي من ذلك بما يضحك الثكالى وينشط القلوب للتعجب بعد أن كانت كُسالى على أن يأتي من ذلك بما يشبه التورية والاستخدام والاستعارة والجناس الناقص والتام فما كنت أنا ولا شيخنا الحافظ فتح الدين محمد بن سيد الناس نقضي العجب من ذلك، ونقول له: يا سيدنا سبحان من وسع عليك في هذا الفن المسالك فيعجبه ذلك ويقول: والله هذا ولم أقرأ المقامات ولا حفظت شيئًا من شعر المتنبي ولا اشتغلت بشيء من العربية ولا العلم، فنقول له هذه مواهب وقرائح"[٥].

وهذه شهادة له ولمكانته الأدبية ومقدرته على الصياغة والنظم، وتؤكد على موهبته في هذا المجال، لاسيما أنها صادرة من أحد كتَّاب الديوان، بل ويزيد عليها شهادة أحد رجال الحديث آنذاك، مؤكدين أن الله وسّع عليه في هذا المجال، وأنها موهبة من الله، ويزيد الصفدي على ذلك بأنه كانت بينهما مراسلات شعرية، وقد أورد الصفدي بعضًا مما كتبه إلى اليوسفي[٦]. وللأسف لم يورد شيئًا مما كتبه اليوسفي إليه، ولكن على أية حال فهو قد شهد له وأشاد بملكته وقدم وصفًا لأشعاره، كما شهد له ابن حجر أيضًا بذلك[٧].

---

(١) نزهة الناظر، ص٢١٩.

(٢) نزهة الناظر، ص٢٢٥: ٢٢٨.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٣٦.

(٤) نزهة الناظر، ص١٤٧، يذكر المحقق أن هذه الأبيات من قصيدة لأبي بكر أن اللبانة الأندلسي عندما أسر المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وتنكرت الأيام لأولاده وبناته نقلاً عن ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق٢، ص٨٠: ٨١. حاشية رقم (١٤٧).

(٥) أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٨، رقم (١٩٠٢).

(٦) أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٩.

(٧) الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨١، رقم (١٠٣٧).

وتتجلى مهارته الأدبية فيما صاغ من مقطوعات ورسائل أدبية، ومنها تلك الأسطر التي كتبها عند استلام المسلمين لأحد الأبراج الموجودة في سيس، وقد كان اليوسفي ضمن التجريدة التي تسلمت البرج، فكتب عدة أسطر قرأها الإمام عند صعوده لأعلى البرج، وقد سبقت الإشارة اليها [١].

أضف إلى ذلك تلك الرسالة التي ختم بها النسخة التي بين أيدينا، والتي صاغها في فتح سيس. وهي تؤكد على ملكته الأدبية[٢]. تلك الرسالة التي لخصت الحملة إلى سيس، وقد صاغها بأسلوب منمق تطغى عليه المحسنات البديعية، فضلاً عن استعارة بعض العبارات من آيات القرآن الكريم، وهى تدل على ما كان يتمتع به من حس أدبي وقدرة على الصياغة، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه قد طُلب منه إنشاء هذه الرسالة، إذن فهو معروف بين أقرانه آنذاك بقدرته الأدبية على صياغة مثل ذلك.

ويؤكد ذلك ما حدث أثناء التجريدة إلي اليمن سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م والتي شارك فيها اليوسفي، وقام بدور كبير أظهر خلاله مهاراته الأدبية حتى طلب منه أحد المسئولين – أثناء الطريق من مكة إلى اليمن– إنشاء رسالة رسمية لإرسالها إلى ملك اليمن يعرفه فيها بحضور العسكر، ويصف له شدتهم ويطمئنه على أمره، وبالفعل كتب الرسالة، وكان مطلعها: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، وما النصر إلا من عند الله، يقبِّل الأرض وينهي ما وجب من شكر الله تعالى عمّ فضله القاصي والداني، وبلّغ الرعية بنصره ما وجدوه بعد الخوف من الأمن وبلوغ الأماني ..."[٣] وهو كتاب يظهر مدى براعته في الكتابات الرسمية بأسلوب منمق، والتي اعترف له بها القاصي والداني، وأصبح محل ثقة حتى يُطلب منه الكتابة لملك اليمن.

لغة الكتاب:

وبالرغم من كل ما سبق فإن الأمر عند اليوسفي يختلف كثيرًا مع اللغة التي صاغ بها مؤلفه أو عرض بها الأحداث، إذ نجد اللغة عنده تميل بشكل كبير إلى العامية والركاكة، ولعل هذا ما عبَّر عنه الصفدي بقوله: "... على عاميته"[٤]، وقد اتضح ذلك خلال الدراسة، ومن عباراته العامية مثلاً ما ذكره عن محاولة النشو للإيقاع بأحد رجال الدولة والكيد له عند السلطان بالباطل عن طريق بعض الناس، وفيه يقول اليوسفي: "وعرفهم ما يقولوه قدام السلطان"[٥]، وفي موقف آخر

(١) نزهة الناظر، ص٤٠٤: ٤٠٥، راجع، ص١٨من البحث .

(٢) عنها انظر نزهة الناظر، ص٤١٧: ٤١٩.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر، ملاحق الكتاب، ص٤٢٥: ٤٢٦.

(٤) أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٨.

(٥) نزهة الناظر، ص١٢٠.

شبيه لذلك يقول "وعرفوه إيش يقول..."[١]، وكذلك في ترجمته لأحد الأشخاص قال عنه: "ومشي مشي شكر عليه في وظيفته"[٢] يقصد أنه أحسن الأداء في وظيفته وشكر الناس سيرته فيها. وكما في قوله: "ما لحقنا نقعد إلا...."[٣] ومنه أيضًا قوله: "مسكه في الطريق"[٤] و"قله يطول روحه عليه"[٥] كما كان يعبر عن كلمة اللصوص بـ "الحرامية"[٦].

كما كان يستعمل كلمة "حَرَجَ" بمعنى الغيظ أو الغضب، فيقول مثلاً "حرج السلطان من كذا"[٧] أي غضب أو اغتاظ، كما كان يستعمل كلمة "يودر" بدلاً من يهدر، فيقول "يودر مالك"[٨].

وربما حذف بعض الحروف أو أبدلها بأخرى، من ذلك مثلاً حذفه للياء من بعض الكلمات بشكل واضح، كما في قوله: "... كان سبب في حماته منه"[٩] يقصد حمايته. ومنه أيضًا طريقة تعامله مع الهمزة المتوسطة، فإن كانت مكسورة نجده يقلبها ياء، كما جاء في قوله: "تائب" نجده يذكرها "تايب"[١٠] وذلك باستمرار وكلمة "الملائكة" يذكرها "الملايكة"[١١] وكلمة "سائر" يذكرها بـ "ساير"[١٢] كما يقول "مايا"[١٣] بدلاً من مائة، و"الأوايل"[١٤] بدلاً من الأوائل و"وقايع"[١٥] بدلاً من وقائع، وكذلك إذا كانت ساكنة يقلبها ياء كما في كلمة "بير"[١٦] بدلاً من بئر، وأحيانًا يحذفها كلية، كما في قوله: "أمراه"[١٧] بدلاً من أمرائه، و"غُرماه"[١٨] بدلاً من غرمائه.

---

(١) نزهة الناظر، ص٢٧٣.

(٢) نزهة الناظر، ص١٣٣.

(٣) نزهة الناظر، ص١٨٩.

(٤) نزهة الناظر، ص١٩٧.

(٥) نزهة الناظر، ص٣٢١، للمزيد انظر ١٢٤، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٤، ١٦٠، ١٦١، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٤، ١٨٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٤، ٣١١، ٣١٢، ٣٢١، ٣٦٢.

(٦) نزهة الناظر، ص٢٣٧، ٢٨٩.

(٧) عنه انظر نزهة الناظر، ص١٨٨، ٢٩٢، ٣٧١.

(٨) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢٤٨.

(٩) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢٤٥.

(١٠) عنه انظر نزهة الناظر، ص١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٨٧.

(١١) نزهة الناظر، ص٣٩٩.

(١٢) نزهة الناظر، ص١١٥، ١٢٦، ٢٩٠، ٣١١، ٣٨٦.

(١٣) نزهة الناظر، ص٢٩٣، ٣٠٨، ٣٨٧.

(١٤) نزهة الناظر، ص١٤٨.

(١٥) نزهة الناظر، ص١٧٠.

(١٦) نزهة الناظر، ص١٤٢.

(١٧) نزهة الناظر، ص٣٠٣.

(١٨) نزهة الناظر، ص٣٧٧.

وإذا كانت الهمزة المتوسطة مرفوعة نجده يحذفها كلية كما في كلمة "لؤلؤ" والتي جاءت عنده دائمًا برسم "لولو"(١) أما إذا كانت متطرفة فأحيانًا يكتبها ياء كما في قوله: "علاي الدين" بدلاً من علاء الدين (٢)، وربما حذفها كلية كما في كلمة الميناء والتي عبر عنها بـ "المينا"(٣).

ومن الإنصاف القول بأنه إذا كان اليوسفي يميل إلى العامية والركاكة في مؤلَفه؛ فإن ذلك لم يكن ليقلل من مكانته وأهميته، ولا أن يجعله موضع اتهام، وذُكر أن العامية قد تسربت إلى كتابات المؤرخين في العصر المملوكي، و ذلك دون أن يقلل من أهميتها، أو يجعلها مظنة سوء، بل أصبح أمرًا معتادًا، حتى أنه لم يعد يثير الانتباه أصلاً آنذاك(٤).

أخطاء نحوية:

أ- التذكير والتأنيث:

من الملاحظ على ما ورد عند اليوسفي استخدامه – غالباً- التذكير في موضع التأنيث والعكس، من ذلك مثلاً ما ذكره عن سفر السلطان سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م حيث قال: "وكان السلطان في هذه السفرة الذي ذكرناها"(٥) فنجده استخدم الاسم الموصول للمذكر في معرض الحديث عن المؤنث. ومنه أيضًا قوله: "ورسم السلطان للنشو أن يرصد نفسه للأصناف الذي يحتاج إليها"(٦) وكذلك قوله "وأخذ المخازن الذي للتجار"(٧) كما تحدث عن موقف حدث بين جاريتين وخروج إحداهما من البيت فقال: "فخرجت الذي هي مقيمة في البيت"(٨)، وكذلك قوله "وحلف بالطلاق من زوجته أن هذا الأوراق لم يكن بإشارته"(٩).

ب- استخدام المفرد للجمع والعكس:

من الملاحظ أيضًا فيما ورد عند اليوسفي استخدامه الاسم الموصول المستعمل للمفرد عند الحديث عن الجمع، من ذلك مثلاً ما ذكره في معرض الحديث عن محاولة الاغتيال التي تعرض لها النشو سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م واتهام النشو وأخيه للكتاب في ذلك، وذكر أن أخوه طلع عرف السلطان" أن

---

(١) نزهة الناظر، ص١٢٦، ١٢٧، ١٧٨، ٣٧٤، ٣٧٧.

(٢) نزهة الناظر، ص١٧٨، ٣١٨، ٣٢١.

(٣) نزهة الناظر، ص٢٣٧، ٢٣٨.

(٤) شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص٧٤: ٨٥.

(٥) نزهة الناظر، ص١٥٠.

(٦) نزهة الناظر، ص١٦٧.

(٧) نزهة الناظر، ص٣٧٢.

(٨) نزهة الناظر، ص٢١٤.

(٩) نزهة الناظر، ص١٨١. للمزيد انظر، ص١٨٨، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٩٦، ٣٠٨، ٣٢٧، ٣٩٧.

غرماه (يعني غرماءه) الذي قصدوا قتله هم الكتَّاب الذي في الترسيم"[١] فنجده استخدم الاسم الموصول المفرد في موضع الجمع، وكذلك قوله: " والمشايخ الذي أحسن إليهم"[٢] ومنه أيضًا " هذا البلاد"[٣].

وربما استخدم اسم إشارة للجمع في موضع المثنى كما في قوله "أن هؤلاء الأميرين"[٤] وربما استخدم المفرد في موضع المثنى كما جاء في قوله: "ضمنوا هذا الجهتين"[٥] وكذا قوله "هذا الأميرين"[٦].

ج- الإعراب:

ومن الملاحظ أيضًا على ما ورد في نزهة الناظر، وجود الكثير من الأخطاء الخاصة بالإعراب، من ذلك – وهو الأكثر شيوعًا – ما حدث عند ذكره للأعداد، وما يجب الالتزام به معها من مبدأ التذكير والتأنيث، ويتضح ذلك جليًا عند حديثه عن منسوب النيل سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م حيث قال: "كان النيل فيها تسع عشر ذراع وثمان أصابع"[٧] والأصل (تسعة عشر ذراعًا وثمانية أصابع) وتكرر ذلك عنده كلما تعرض لمنسوب النيل في كل سنوات كتاب النزهة، أو عند ذكر أعداد بشكل عام[٨].

ومن الملاحظ عنده أيضًا عدم ذكره للتنوين، وهو عنده كثير، منه مثلاً قوله "...قلق كثير"[٩] و"سعي سعى كثير"[١٠] يقصد سعيًا كثيرًا ، وقد تكرر ذلك عنده.

ويلاحظ عنده أيضًا رفع المجرور، كما في قوله "لأبوسعيد"[١١] وربما رفع المنصوب كما في قوله "أن أبوسعيد"[١٢] ،أو نصب أو جر في موضع الرفع[١٣] ، وهكذا يتضح وجود الكثير من المآخذ اللغوية على طريقة اليوسفي في عرض الأخبار، وسيأتي تعليل ذلك.

---

(١) نزهة الناظر، ص٣٧٧.

(٢) نزهة الناظر، ص٢٤٥.

(٣) نزهة الناظر، ص٢٠١ وعنه أيضًا انظر، ص١٤٠، ١٦٤، ٣٤١، ٣٩٧.

(٤) نزهة الناظر، ص٢٨٦.

(٥) نزهة الناظر، ص١٢٦.

(٦) نزهة الناظر، ص٢٩٨.

(٧) نزهة الناظر، ص١٥٩.

(٨) عنه انظر نزهة الناظر، ص٢٢٩، ٢٧٢، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٣٧، ٣٩٣.

(٩) نزهة الناظر، ص١٢٤.

(١٠) نزهة الناظر، ص١٢٦ للمزيد انظر ص ١٢٦، ٢٠٣،٢٣٥، ٢٣٩، ٣٠٤.

(١١) نزهة الناظر، ص١٧١، وعنه أيضًا انظر، ص٢٠٠، ٢٠١،٣٦٣،٣٦٢.

(١٢) نزهة الناظر، ص٢٠١.

(١٣) نزهة الناظر، ص٢٤٥، وعنه أيضًا انظر، ص٢٨٦، ٢٩٨.

استعمال كلمات غريبة:

كان اليوسفي أحيانًا يستعمل كلمات غريبة مثل قوله "اتقح"(١) التي جاءت في معرض الحديث عن خلاف بين اثنين من الأمراء، وأن أحدهما اتقح على الآخر بالكلام، ويبدو من السياق أنه يقصد بها أنه تطاول عليه، وربما يعمد اليوسفي إلى توضيح معنى بعضًا منها. من ذلك ما جاء مثلاً في شرحه لعبارة وردت على لسان المستوفي قالها للسلطان وهي "أريد معي مشد يقول للخبز قبز" ويعقب اليوسفي بالشرح قائلاً "وأراد بها نكاية أنه رجل بلدي ويريد رجل غتمي"(٢).

استعمال بعض الألفاظ الفاحشة:

مما يتصل باللغة استعمال اليوسفي لبعض الألفاظ الفاحشة، إذ لم يكن يتورع عن ذكر بعض الكلمات الغير لائقة التي ترد على ألسنة البعض إذا لزم الأمر، وقد تكرر ذلك في أكثر من موضع، من ذلك مثلاً ما جاء في أحداث سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م في معرض الحديث عن خلاف بين اثنين من رجال الدولة بحضرة السلطان، وما وقع بينهما من تبادل للشتائم والألفاظ الخارجة، والتي ذكرها اليوسفي بنصها(٣).

ويتصل بذلك أيضًا ما أورده من ألفاظ عند ترجمته لأحد الأشخاص، في معرض خلاف دار بين المُترجم له وإحدى جواريه، نجد اليوسفي يتعرض لذلك بالتفصيل مسجلاً الألفاظ الفاحشة التي دارت على ألسنة الطرفين(٤). كما تكررت كلمة "قوَّاد"(٥) عنده أكثر من مرة. وهذه أمور ربما لا نجدها عند غيره، وربما كان ذلك منه حرصًا على نقل الصورة بكل دقة وتسجيل تفاصيل المواقف دون تردد أو حرج.

الألوان البديعية:

وعلى الجانب الآخر كان اليوسفي يجنح أحيانًا إلى استخدام المحسنات البديعية، ومن ذلك ما جاء عند اليوسفي في أحداث سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م عن وفاة بكتمر ووصف حالة أهله، إذ قال :"... وما رأي أحد في الناس أفجع من ذلك اليوم ولا أوجع من ذلك القوم،واجتمعت العالم على محاملهم وهي سايرة تزف بالأحزان وتلطم حر الخدود بالأكف والبنان، ... وصحن بالويل على ظهور البغلات"(٦).

---

(١) نزهة الناظر، ص٣٤٢.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٤٨.

(٣) نزهة الناظر، ص١٧٨، وعنه أيضًا انظر ص٣٠٥.

(٤) نزهة الناظر، ص٢١٤.

(٥) نزهة الناظر، ص٢٤٩.

(٦) نزهة الناظر، ص١٤٧.

ومنه أيضًا ما جاء في أحداث سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م عندما تطرق لما فعله السلطان من العمل على قتل أحد أمراء التتار بالحرم، وطلبه المساعدة من أمراء الحجاز وقد رفضوا مساعدته في ذلك، وعنه قال اليوسفي: " وشرع في التحيّل على بلوغ قصده، ولو تجاوز في الفحشاء حدّه، فيا همَّة ما كان أقصر عند الله خطاها، ويا عزمة ما كان أسعده لو تخطاها"(١).

وعليه يمكن القول أنه من خلال الدراسة قد اتضح التباين والتفاوت في الأسلوب الذي صاغ به اليوسفي النسخة موضوع الدراسة، فنجده أحيانًا في مصاف الشعراء والكتاب المعتمدين، ويؤكد ذلك ما وضعه في طيات مؤلفه من مراسلا وكتابات رسمية تؤكد على ملكته الأدبية، وفي الوقت نفسه نجد أسلوبًا آخر في أحيان كثيرة يميل إلى العامية والركاكة، بل وربما يتخلله أخطاء نحوية ولغوية، ويمكن تفسير ذلك بأنه كان حين يسجل الأخبار أو الأحداث لا يأبه كثيرًا بالأسلوب أو القواعد اللغوية، بل يكتب على سجيته مهتمًا في المقام الأول بتسجيل الخبر، وربما يرجع ذلك إلى شخصيته العسكرية وكثرة اختلاطه بالمماليك وحديثه مع الجند والقادة الأتراك؛ مما أثر على لغته وأسلوبه.

أما حين يجنح إلى إنشاء رسالة أو كتابة رسمية نجده يتأنق في الصياغة ويظهر موهبته الأدبية، حتى يظن القارئ أنه أمام شخصيتين مختلفتين، وعليه يمكن القول بأنه مع كتاب اليوسفي نجد أنفسنا أمام شخصية مختلفة بعض الشيء عن غيرها من كتاب تلك الفترة، وبالفعل كما قيل "مواهب وقرائح"(٢)؛ وعليه يمكن القول بأنه جمع بين الأسلوبين المرسل والأدبي المتأنق مع الميل إلى العامية في أكثر الأحيان.

(١) نزهة الناظر، ص١٧٣، وعنه أيضًا انظر، ص١٧٩، ٢٥٩، ٣٥٨.

(٢) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٨.

الخاتمـة:

- أظهرت الدراسة موضوعية المؤرخ اليوسفي في تناوله للقضايا المختلفة وأنه لم يكتب التاريخ تملقًا لسلطان أو غيره.

- ركز اليوسفي – في النسخة موضوع الدراسة– بشكل كبير على العلاقات بين الأمراء بعضهم البعض ومجالسهم وما يدور فيها، حتى الخلافات الشخصية فيما بينهم وما ترتب عليها – أحيانًا– من اتفاقات سرية بينهم، أو خلافات وصراعات.

- حظيت النواحي الإدارية في عهد السلطان الناصر محمد آنذاك بقدر لا بأس به من اهتمام اليوسفي، مشيرًا بين الحين والآخر إلى ما خيم عليها من فساد وتلاعب لتحقيق أغراض شخصية.

- تطرق اليوسفي إلى العديد من أنواع العقوبات التي كانت تقع على المغضوب عليهم من رجال الدولة، أو المحكوم عليهم بالمصادرة، والتي قد تصل – بالإضافة إلى الضرب والتعذيب– إلى هدم الدور وحرث مكانها بالمحراث.

- أظهرت الدراسة اهتمام اليوسفي بالسياسة الخارجية، وقد اتضحت المكانة الكبيرة والنفوذ الواسع الذي تمتع به السلطان الناصر على الصعيد الخارجي؛ حتى أن الجميع يحاول التقرب إليه وخطب وده، بل وإرسال الهدايا والرسل في محاولة لإثبات الود والولاء له، ولا أدل على ذلك من مساعي مغول فارس إلى التصالح والتقرب إليه، وكذلك الأرمن وتوددهم إليه.

- أكد اليوسفي أنه رغم الاتفاقات والصداقات الظاهرة بين المماليك ومغول فارس؛ إلا أن الأمر كان لا يزال ينطوي على حيطة وحذر من كل منهما تجاه الآخر.

- لم يتطرق اليوسفي من قريب أو بعيد إلى المجالس الخاصة للسلطان أو ما يعرف بمجالس الشراب.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصـادر:

- **ابن إياس:** محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ق١، ج١، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢.
- **ابن أيبك الدواداري:** (أبوبكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري ت ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م).
- كنز الدرر وجامع الغرر، ٩ أجزاء، ج٩، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني، القاهرة، ١٩٦٠.
- **البخاري:** (أبوعبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ت٢٥٦هـ/ ٨٧٠م).
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه المشهور بـ "صحيح البخاري" بدون.
- **البرزالي:** (علم الدين أبومحمد القاسم بن محمد بن يوسف الأشبيلي الدمشقي ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م).
- المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بـ "تاريخ البرزالي"، ٤ أجزاء، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.
- **بيبرس المنصوري الدوادري:** (ركن الدين بيبرس المنصوري الناصري ت٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م).
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالدس ريتشارد، المعهد الألماني، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- **ابن تغري بردي:** (جمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م).
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ١٧ جزء، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، ج٨، ٩ تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- **ابن الجزري:** (شمس الدين أبوعبدالله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري القرشي ت٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م).
- تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بـ "تاريخ ابن الجزري"، ٤ أجزاء، ج٢، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- **حاجي خليفة:** (مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي، ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م).
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مجلدان، مج٢، مكة المكرمة، د. ت.
- **ابن حجر:** (شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد الشهير بابن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ/ ١٤٠٥م)..
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، ج٤، بيروت، ١٩٩٣.
- **ابن خلدون:** (عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م).

- المقدمة، ضبط وتقديم: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠١.

- **الذهبي:** (شمس الدين أبوعبدالله ت٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م).

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ٥٣ جزء، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

- دول الإسلام، بيروت، ١٩٨٥.

- **ابن شاكر الكتبي:** (محمد بن شاكر الكتبي ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)

- فوات الوفيات والذيل عليها، ٥ مجلدات، مج٢، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د. ت.

- **الصفدي:** (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م).

- أعيان العصر وأعوان النصر، ٦ أجزاء، ج١، ٣، ٥، تحقيق: علي أبوزيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

- **أبوالفدا:** (المؤيد عماد الدين إسماعيل ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م).

- المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، ج٤، القاهرة، ط١، ١٣٢٣هـ.

- **ابن فضل الله العمري:** (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ٢٧ جزء، ج٤، تحقيق: حمزة أحمد عباس، أبوظبي، ط١، ٢٠٠٢.

- **ابن كثير:** (عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

- البداية والنهاية، ٢١ جزء، ج١٨، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.

- **مفضل بن أبي الفضائل:** (ابن العسال مفضل بن أبي الفضائل ت٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م).

- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، مجلدان، تحقيق: محمد كمال عزالدين، دمشق، ط١، ٢٠١٧.

- **المقريزي:** (تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر العبيدي ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).

- السلوك لمعرفة دول الملوك، ٨ أجزاء، ج٢، ٣، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ (الخطط المقريزية) ٤ أجزاء، ج٣، مكتبة كلية الآداب، القاهرة، د. ت.

- **القلقشندي:** (أبوالعباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي الفزاري ت٨١٤هـ/ ١٤١١م).

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، ج٤، ١٤، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤.

- **النويري:** (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م).

- نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٣ جزء، ج٢٩، ٣١، ٣٢، تحقيق: نجيب مصطفى فواز، حكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

- **ياقوت الحموي:** (شهاب الدين أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م).
• معجم البلدان ٧ مجلدات، دار صادر، بيروت، د. ت.
- **اليوسفي:** (موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي ت٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م).
• نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.

ثانيًا: المراجع:

- **أسامة حسن:**
- الناصر محمد بن قلاوون، القاهرة، ١٩٩٧.
- **حسان خلاف، عباس صباغ:**
• المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- **الزركلي: (خير الدين الزركلي).**
• الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من أعلام العرب المستشرقين) بيروت، ط٥، ١٩٨٠.
- **زين العابدين شمس الدين نجم:**
• معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦.
- **سعيد عبدالفتاح عاشور:**
• الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٠.
- **السيد الباز العريني:**
• المماليك، بيروت، ١٩٩٧.
- **السير وليم موير:**
• تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
- **شاكر مصطفى:**
• التاريخ العربي والمؤرخون، ٣ أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٣.
- **صائب عبدالحميد:**
• علم التاريخ ومناهج المؤرخين في علم التاريخ نشأة وتدوينًا ونقدًا وفلسفة ومناهج كبار مؤرخي الإسلام، بيروت، ٢٠٠٨.
- **عبدالعليم خضر:**
• المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالي للفكر الإسلامي، العراق، ط٢، ١٩٩٥.
- **عبدالمنعم ماجد:**
• نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، النظم السياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩.
- **علي إبراهيم حسن:**
• استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٠م.

- **فالتر هانتس:**
- المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، القاهرة، ١٩٥٥.
- **محمد أحمد دهمان:**
- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
- **محمد جمال الدين سرور:**
- دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٨.
- **محمد سهيل طقوش:**
- تاريخ المماليك في مصر والشام ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١١٢٥-١٥١٧م، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- **محمد عبدالله سالم العمايرة:**
- المعجم العسكري المملوكي، الأردن، ٢٠١٠.
- **محمود رزق سليم:**
- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ٤ مجلدات، مج١، ق٢، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢.
- **محمود شاكر:**
- التاريخ الإسلامي، العهد المملوكي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- **يسري عبدالغني:**
- مؤرخون من عصر الموسوعات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.

ثالثًا: الرسائل العلمية:

- **شيماء عبدالفتاح محمود سالم.**
- شمس الدين محمد بن أبي بكر الجزري (ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٩م) وكتابه تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ ابن الجزري) (٦٨٩-٧٣٨هـ/ ١٢٩٠-١٣٣٨م) دراسة منهجية، ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإنسانية، قسم التاريخ، ٢٠٢٢.
- **طه خليل الحمادي:**
- دراسة وتحقيق قطعة من مخطوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لمؤلفه: بدرالدين العيني ت٨٥٥هـ/ ١٤٥١م. تؤرخ القطعة للسنوات ٧١١هـ: ٧١٤هـ/ ١٣١١-١٣١٤م، ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، سنة ٢٠١٤.
- **كريمة حسين عسقلاني:**
- تحقيق مخطوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر الدين العيني في الفترة من (٧٢٣- ٧٤١هـ/ ١٣٢٣-١٣٤٠م)، ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإنسانية، قسم التاريخ، ٢٠١٦.
- **مجدي محمد عبده الصاوي:**
- التحالفات السياسية وآثارها في دولة المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م)، ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، قسم التاريخ والحضارة، ٢٠١٨.